

محمود زهير

شمس وليك

مكتبة المطبع والنشر
بمكة المكرمة والمدينة المنورة
الطبعة الأولى ١٩٣٧
الطبعة الثانية ١٩٣٧
الطبعة الثالثة ١٩٣٧



شمس وليك

تأليف

محمود محمود

مستزاد الطبع والنشر
مكتبة الآداب وطبعها بالاسكندرية ١٩٢٧
الطبعة النموذجية
أسكنه الله الفردوس المجد

إهداء

إلى أعزائي الصغار :

«محمود»، «ود علي»، «ود خديجة»، «ود زينب»، ...

في وجوهكم الوضيئة، تتجلى لي مطالع وحى وإلهام . ومن

بسماتكم، يترسّل على فؤادي برد وسلام .

وفي ظل طمأنينتي بكم ومحبتى لكم أقيد ما يعن لي من

حديث نفسى ونجوى .

فما أجدر أن يزجىَ إليكم جدُّكم صحائفه تلك ...

هديةَ ردّ للجميل ...

محمود تيمور

الرحيل

لم يكن على بالنا أن نرتحل إلى هذه البقعة من الأرض «
 بقعة « الشمس في منتصف الليل » فما فكرنا فيها يوما «
 ولا اعتزمنا في شأنها أمرا ، وإنما نجمت الفكرة — في هينة
 ورفق — يوم خرجنا إلى المطار في ضاحية « القاهرة » ، نودع
 أحباءنا في سفرتهم إلى بلاد الشمال ، يقضون فيها بعض
 وقت ، تاركين عندنا وديعة غالية هي صغير عزيز عليهم
 وعلينا ، فوعدناهم أن نرده إلیهم بعد بضعة أشهر ، والضيفُ على
 الأبواب .

وانقضت الأشهر بسلام ، ناسخة ظلال الربيع مؤذنة
 بيوادر الصيف ، فألفيتني أتخذ الأهبة للرحيل ، وفاء بالوعد ،
 ووقفت أمام الحقيقة المعهودة — حقيقة الطائرة — أنفض
 عنها الغبار ، ثم قصدت — أول ما قصدت — إلى صوان
 الثياب . اجتذب « حلة السفر » تلك الحلة التي لا ألبسها إلا
 حين أتخذ الطائرة مطية لرحيل ...

يرجع عهدي بهذه الحلة إلى المرة الأولى التي ركبت فيها الجو ،
فبلغت برّ السلامة والأمن ...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحفظ بتلك الحلة أيّما احتفاظ ،
وأحرص عليها كل الحرص ، وأخصها بالرعاية والتعهد ، مدّخرا
إياها ليوم أتضيق فيه الطائفة ، ولا أكاد ألتبسها في غير ذلك
اليوم ، ضنا بها على الابتذال .

وإني لأعترف جهرة بأنّ متبائر بهذه الحلة ، تسكن إليها
نفسى ، ويقع في روعى أنى ما دمت أردتها فلن يصيبنى من مخاطر
الطيران ضير ... هى على جسدى درع حماية وصون وأمان ،
ردّ عني نزق الرياح ، وتؤلف بينى وبين حرس السماء

يد أن الحلة يدركها ما يدرك كل كائن على وجه البسيطة ،
هى نضمحل على الأيام ، وإني لأراها تريث وتبلى وريدا
ريویدا ، فأرى معها عمرى تلحقه الرثانة واليلى ، ولكأنها
« الجلد المسحور » الذى «^(١) وصفه « بلزاك » في قصة له »

١ - قصة « الجلد المسحور » بلزاك تلخص في أن شخصا اشترى جلدا
سحريا ، كلاما عليه الزمان انكشف وتقلص ، فلنشدّة تعلق صاحبه به أصابه في =

يتناقض ويتكش على مهل ، فيعترى عمرٌ صاحبه من التناقض
والتكش مثل هذا القدر .

مالى أصل حياتى بحياة هذه اللحظة ؟ ...

وما لهذا الهم يهيم على مشاعرى ، وأنا أعلم علم اليقين أن
العقل يأباه ، بل يصمّه بأنه سُخْف وهُراء ؟ ...

ولكنه الضعف البشرى الذى فطرنا عليه ، وسحر الأساطير
الذى خضعنا له ، حيناً تتشاءم وتتطير ، وطوراً تتباشر وتيمن .
ولنا نحن الشرقيين فى ذلك أبلغ العذر ، فهذا ميراثنا منذ الحقب
الخوالى ، يحيلنا أطفالا أمام سطوة القدر ... ذلك السلطان
المحجّب المغيّب ، الذى نحسّه دون أن نراه ، ونزّهه دون
أن يُسفر لنا محياه ، يسترق إلينا الخطأ ، متسربا فى أعماق
الوجدان ، يكشف الحبايا والأسرار

حقا نحن حيال هذا القدر أطفال ...

== بدنه وعمره المكاش وتقلص ونصر ... وذلك رمز للضعف البعترى ،
وخضوع عقل ابن آدم للأساطير والحرافات والأوهام ؛ لعدة خونه ونفزه من
مصيره المحتوم ...

ولكن ما باننا نأثف أن نكون ، أطفالا ، على
عدة العمر ؟

وما لنا نكره أن نحيا في رحاب الأوهام والأساطير ،
مادمنا ندرك بها الوطر من سكينه النفس وراحة الضمير ؟ ...
مرحبا بكل وسيلة تكفل لنا أن نصيب الأهداف ! ..
وتناولت الحلة على بركة الله ، أمسح عليها يدي ، كما
أمسح على رأس حبيب الأطفه ، مُعدًا إياها لساعة
الرجيل

احتوانا المطار في وسط الليل ، فبرزنا إلى الساحة الشاسعة ،
 مهبط الطائرات من كل فج ، ومرقاها إلى كل مرمى ...
 وقفت أرجع البصر حولي يهولني ما أرى وما أسمع ،
 لا تكاد تصعد طائرة حتى تصوب أخرى ، والأزيز متواصل
 يترسل على أسماعنا نغمة عذبة ، نغمة ترضى غرور الإنسان ،
 ذلك الكائن العجيب الذي ينزع به الطمّاح كل منزع فهو اليوم
 يقف في زهو وخيلاء ، ينظر كيف استحال بساط الريح في
 عالم الرؤى والأحلام ، مركبة من حديد ونار ، تخفق للعيان على
 رؤوس الأَشْهاد .

في أكناف السماء نجوم من فوقك تبص ، ومن الطائرات
 نفسها نجوم حولك تختلج ، وعلى جوانب الأرض نجوم كهربية
 منتثرة تلمع ... إنها مصاييح الطبيعة ومصاييح الإنسان ،
 تتزاحم وتتداخل ، حتى لا تميز بين بعضها وبعض ، وفيه التميز
 وقد نُصبت كلها في السماء والأرض لخدمة البشرية ،

مناوِرَ هداية وتبصير ؟...

وعلى مقربة منا حلت طائرة ، فمال على صاحبي — مرشدُ

المطار الأمين — يقول

هذه طائرة من « الهند » يقودها قىّ شجاعٌ ، لم يتجاوز العقد

الثالث من عمره ، يُدعى « الحان » ، وله في مغامرات الطيران

حولات تُضرب بها الأمثال

وأردف صاحبي يقول :

لقد بلغت الهند على حداثة عهدها بالطيران شأواً بعيداً في

مغالبة الجو ، وكان لها فتحٌ مبين في ذلك الميدان .

إيه أيتها الهند العزيزة ، ذات الحضارة الشرقية النالدة !...

لقد نضوت عنك اليوم سُبَّاتاً طال به الأمد ؛ فلم تعودى « هند »

الغطاريف من أقبالٍ يرفلون في الدّمَقْس ويكبلون الذهب ،

بل أصبحت « هند » الغطاريف من أقبالٍ الطيران ... لقد نزعْتَ

عنك غلائلٌ ، ألف ليلة وليلة ، واتخذت إهاب الحياة الجديدة

في عصر حضارة الغرب ... سِرى أيتها الشقيقةُ الكريمة ،

بل طيرى ... إلى العلاء !...

وأذّن المؤذّن بالرحيل ، فدانينا من طائرنا السويدية
الأنيقة ، لاتخلو خطانا من تخوف وحذر ... وكنا في هذه
السّفرة أسرة تضم ثلاثة من أعزائنا الصغار ، فثلت حيالهم
أُطلع إلى وجوههم الوسيمة الغضة ، مستمدا منها طمأنينة الروح
وصفاء الشعور ، فما لبثت مخاوفي أن تزايدت ، وأقبلتُ على
الطائرة في خَطو جُور ...

هيات أن يُحوّم الخطر حيث تُشرق هذه الوجوه
النضرة البريئة

يا صغاري الأجااء ...!

يا ملائكة الرحمة ...!

بكم ألوذ من كل سوء ، ومنكم أستلهم ثقة النفس ، ورباطة
الجلأش ، وسكينة الضمير ...!

النقَمْنَا جوفُ الطائِرةِ ، وأُطِفْتُ المصاييحَ ، وتألقت أمام
الآعين هذه الكلمات :

التدخين محظور ! ... ليشدَّ كل منكم نطاقة ! ...
وجعلت أجنحة الطائِرة تدفّ ، فنبعث لدفيها دوىً ..
وأرخيت جفنى .

هأنذا ألقي أحمال المتاعب عن كاهلى ، وأنخل عن الشواغلِ
والتصاريف التى تحوطنى ، تاركاً إياها خلفى ، ملتسماً صفو
الراحة والجنّام ، بادئاً — بحق — عطلة الصيف وإجازة
العام ! ...

ما أطيّبَ الدعةَ بعد النعب ! ...
ما أجمل أن يستقبل المرءُ فترة لا يشوبها جد العمل ، وكد
الفكر ، ومجالدة الأعصاب ! ...

ما أسعد المرءَ بأن يتخفف مما يشوده من الغايات
الرائحات فى عيشته الراضية أو غير الراضية ، وفى نظامها الراتب

الدائب ، فينطلق من إساره وقتا إلى الدنيا العريضة ، وقد فصح ما بينه وبين جذور عتيقة متغلغلة ، جذور تشده إلى بيته التي يحيا فيها ، وجوه الذى يتنفس فيه ! ...

إنه لينخف إلى عوالم أخرى غير عالمه ؛ ليجتلى مشاهد جديدة لم يرها من قبل ، ويتملى وجوها غير التى ألف أن يُطالِعها صباح مساءً ، ويصمى إلى نعمة طريفة تذهب عنه الضجر بنغمته المطوّلة التى لم تعد تثير فيه انتباها ولا هِزّة .
إنه لينسرح فى بقاع تُشهِده الشمس فى حُلّة قشّية ،
وثرّيه الليل فى إهابٍ ليس له به عهد ، وتنشقه من نفحات النسيم ما يهدى إلى صدره الاطمئنان والانشراح ...

لكأنه بذلك يدبو من حوض مرمرى عظيم ، فينغمس فى ماء من ذوّب اللّجّين ، يُميط عن النفس صداة الهوم ، ويجلو عن العين غشاوة التبدل والركود .
حقا ما أطيب هذا كلّّه ...

ما أجمله ! ...

ما أسعد المرء به ! ...

إنى لأفكر فيه وأتمثله ، وأنا أقيد هذه الخطرات ، في
تلك الساعة الساجية ، والرفاقُ من حول نيام أو مُتأوِمون ،
والظلمة الرقيقة تبسط علينا شَملة هفافة تلبس بها حقيقة
الزمن ؛ فلا ندرى فى أية ساعة نحن على وجه اليقين ... أهذه مخايلُ
الفجر تسبق انبلاج النور الوهاج ؟ ... أم هى قِمة الغروب
يلوح وراءها الليلُ المُقَمِرُ البهيج ؟ ...

تلك ساعة يقف فيها النور والظلمة على الحياد ، أو هما يقفان
وجها لوجه متأهَبَيْن للعراك ، مرتقبين اللحظة المِواتية ...
فلا تدعمهما يتأهبان ويرتقان ، ولأستمع بهذا الصفاء الذى
تُسبغه على نفسى تلك الهدنة بين ضجة النور إذا سطع ، ووحشة
الظلام إذا أطبق ! ...

فى ذلك الجو الساجى ، حيثُ الطائرةُ تحلق فى أجواز الفضاء
أحس بأنى قد تحررت من كل قيد ، وأن نفسى تهيم مع الطائرة
فى مسراها ، تنعم بعالم حر طليق ...

عالم حر طليق ... ! ؟

بحسبى إلى أن هاتفا يهمس فى أذنى ، يقول :

« أين ماترغم لنفسك من حرية وانطلاق ؟ ...
 إنك لَتُمنى نفسك بأن ترى الشمس في حُلّة قشبية ،
 والليل في إهاب طريف ، وأن تستنشى النسيم بديع النفحات ،
 وأن تشهد من مُتع العيش ألوانا كلُّها تجديد وافتنان ، ولكن
 ثقب بأنك لن ترى من ذلك كله إلا ما تريك إياه عيناك ،
 ولا تحس فيما تجد من ذلك كله إلا ما تشعرك إياه نفسك ، وعيناك
 هما لا تتحولان ، ونفسك هي لا تستبدل بها نفسا
 سواها ... فأنت كما أنت ، أو كما كنت — وإن بُدلت أرضا
 بأرض ، وسماء بسماء — موصول أبدا بما ضيق الحى ، مشدود
 دائما إلى جذورك العتيقة ، تحمل أثقالك حيث تكون ...
 ألسنت وأنت على عتبة هذه الحرية المزعومة تمسك بالقلم ،
 أو بالأحرى يمسك بك القلم ، آخذًا بخناقك ، فيريدك على أن
 تملأ هذه الصفائف التى بين يديك ؟ ... ما أشبه جالسك
 هذه فى جوف الطائرة العابرة : تفكر وتُسَطِّر ، بجلستك المألوفة
 فى ذلك الركن من دارك ، تأمل وتسجل ! ...
 فأنت أنت — كما كنت — سجين فطرتك ، أسير نفسك ،

ينساق بك هواك من حيث تدرى ولا تدرى ، غَيْرَ قادِرٍ
على فَكَاكَ .

لا تحسبنَّ ما يدور بخلدك من أفكار في هذه اللحظات من
وحى البيئة التي عاوتَ إليها بطائرتك ، فما هو إلا قديم قدم
نفسيك ، ناجمٌ من أغوارِ سريرتك ، يحمل بذوره مما تسميه
أثقالَ عيشك وأغلالَ حياتك ! ...

كل ماتشهدهُ في قابلِ أيامك تراه بعينِ ماضيك ، وتلوِّنه
بأصباغِ يبتك في صميمِ وجدانك من هذه البيئة شعاعة من ضوءها
باقية وغشاوة من ظلمتها ثابتة ، وإنما لتترسب في دمك ، وتسرّب
في حسك ، وتكسوك صبغتها رضىت أو كرهت .. فإذا
استطعت أن تبدّلَ من ثوبك ثوباً آخرَ ، فما أنت بمستطيع أن
تبدّلَ مثلَ ذلك من أديمِ جسمك ! ...

مهما تتغيرُ بك الأرض ، ومهما تنقلبُ بك السموات ؛
فأنت في إهابك ، ريبُ أمسك ، نسجُ يبتك ، تحمل همومك
وأوهامك بين طواياك . وإن ترمى بك طائرُ الرِّيحِ إلى بلاد
الواقواق ! ...

متابعك جميعها صُرَّة على كفك ، لاتملك أن تلقها عنك ! ...
إنها كالحدية في ظهر الأحذب ، يحملها على كمره ، ليس له
إلى النجاة منها سبيل ! ...

أرأيت إلى الغطَّاس يحتويه صندوقه الزجاجي ، فيضربُ
به في الموج حتى يمسَّ قَرارة اليمِّ . وما هو يبالغ من الموج شيئا
ولا هو مصيبٌ من الماء بآلة ، ترى عينه اليمِّ وهما كأنها ترى
ألواحا من الصور ، أو تتمثل ألوانا من التهاويل ... فهو
حيسٌ صندوقه الزجاجي ، وإن تقاذفت به الغمَّرات .
شبيهه حالك بحال هذا الغطَّاس تنقل وترتحل جوابَ
آفاق ، سباق غايات ... ولكنك حيسٌ نفسك لا محالة ...
أصغيتُ إلى حديث الهاتف ، وأنا في حيرة وقلق ،
ولكني ما لبثتُ أنْهضتُ به أُجيبه :

« يا صديقي الفيلسوف المجهول ... ربما كنتَ على صواب .
فما زعمتَ ، ولكنَّ قولك هذا لا ينبغي أني في الطائرة أعبر
الجو وأنى مقبلٌ على جديد طريف يُثيرُ الهزة ، ويُبعث
النشوة ، فإن لم يكن يُنسيني ، فإنه لا ريبَ يُسلِّني ... »

فلأعدّ نفسي لهذا الجديد الطريف . ولا استمراره بقدر ما
يتسع له الذرع ، ويأذنُ به الجهد .

هذه متعة تهيئها لي الأقدار الموالية ، فلماذا توسوس لي ،
وتتشقق جوبلي ، لتفسد عليّ ما أعالجُ أن أصلحَ من أمرى ؟ ...
إليك عني ! ...



وأشْرَعَتِ البصر من الطاق ، فألْفَيْتُ الطَّائِرَةَ تَسْرَى فِي
بُقْضَاءٍ وَسِيعٍ تَغْشَاهُ ظُلُالَةٌ مِنْ لَيْلٍ وَدَيْعٍ ، وَالرَّيْحُ مِنْ حَوْلِهَا رُخَاءٌ
لَا تَقْلِقُ الْخَطَطُو ، وَلَا تَعَكِّرُ الصَّفْو ، فَكَأَنَّ الطَّائِرَةَ فِي تَسْيَارِهَا
مُفَكَّرَةٌ تَشْوَى تَخْفِقُ فِي فِرْدَوْسِ الْأَحْلَامِ
وَرَجَعَ بِي الْخَاطِرُ إِلَى الْمَطَارِ ! ...

إِلَى « مِصْر » ! ...

لَمْ يَدْخُلْهُمَا مِنْ أَثَرِ ...

هَذَا أَحْسَنُ مِنْ فُورَى شَعُورٍ وَحُشَّةٍ وَانْقِبَاضٍ ...

لَقَدْ أَيقَنْتُ الْآنَ أَنِّي قَدْ فَصَلْتُ عَنْ الْوَطَنِ ... بَعُدَتْ
بَيْنَا الشُّقَّةُ ، وَاسْتَبَانَ بَيْنَنَا الْفُرْقَةُ ، فَهُوَ مِنْ قَصِيٍّ ، أَتُودِدُ إِلَيْهِ
مَعَالِيهِ بِالذِّكْرِ يَاتِ وَالْعُشُورِ
وَطَنِي ! ...

فِيمَ هَذَا الْأَمْسِ عَلَى فِرَاقِكَ ؛ كَأَنَّكَ إِنْسَانٌ حَيٌّ ، يَجْرِي فِي
عُرْوَتِكَ مِنَ الدَّمِ مَا يَجْرِي فِي عُرُوقِي ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ النِّسْبِ

وَلُحْمَةَ الْقُرْبَى ؟ ...

قيم هذا الحنين إلى لِرْزَامِكَ ، كلما جَدَّيَ الرّحيل عنك ؟
ماخطبُ هذه الدِّمعة يَسْنَدِي بها جفني حين تَحْفَى عني
عَشَارُفُكَ ؟ ...

لَكَأَنِّي بِكَ تَشْدِنِيَاطُ قَلْبِي إِلَيْكَ بِأَمْرَانِي ، فكلما نَأَيْت
عن أَرْضِكَ التَّوَى عَلَى الْقَلْبِ يَنْفَطِرُ مِنْ وَجْدِي وَتَحْنَانِ ...
ما أنت أيها الوطن ؟ ...

وماذا فيكَ من سَرِّ يَهِيْجُ كَوَامِنَ الشَّجَنِ ؟ ...
وهل أنت أولا وأخيرا إلا أَرْضٌ وَمَاءٌ ؟ ...
وهل الدنيا على رُجْبِهَا وإِخْتِلَافِ بَقَاعِهَا إلا مِثْلُكَ : بَرٌّ
وَبَحْرٌ ؟ ...

حقا أنت قبضة من تراب ، وغرفة من ماء ، ولكنها
يختلط بها عبيرُ النفس ، وغرفة يمتزج بها ذمائمُ الروح ... فيها
تستكن البذرة الصميمة للعالم الشخصية المتميزة ، وعليها يتجلى
الطابعُ الأصيل لما نحنُ عليه من ملامح وسمات ...
ما أنت أيها الوطن إلا أنا في أجلِّ المعاني وأرْحَبِهَا ، وما أنا

إلا أنت أيها الوطنُ في أدقِّ تلك المعاني وأضيقها ،
لست أنا إلا بضعةٌ منك ، انفصلتُ عنك ، ولكنها تدور في
قلبك مجاذيبتك ، وستظل في مسدارها حتى يحين الحين ،
فتغنى فيك ...
منك انبثقتُ ، وإليك أعود ... لا مفاصلة بيننا ولا
انقسام ! ...

وظفقتُ أروض على النوم عيني ، ولكن تنافر جفناي ،
وتوالت بي الخواطر ، فظلمت يقظان تتوالى على مشاهد من
سوالف أسفاري ، حين كان العالم لا يعرف للانتقال وسيلة إلا
الباخرة يعبر بها من العُباب ! ...

واستطرد بي التفكير إلى الماضي البعيد ، أستشف فيه مشاهد
السفر ووسائل الانتقال على وجه عام ، وأخذت أوازن بينها
وبين ما همرنا إليه في عصرنا الحاضر . وساءلت نفسي : هل
تطورت نفسية الإنسان وعقليته تبعاً لتطور وسائل الانتقال ؟
وهل ثمة ارتباط بين مُعدّات السفر وبين منهج الحياة
وأسلوب العيش وطابع التفكير ؟ ...

قدما كان الإنسان يتخذ الدواب في الأسفار والنقل ولا
يجزو على الخروج من بلده إلى بلد آخر إلا في قافلة يلوذ
بعضها ببعض ، ويتصر بعضها ببعض ؛ إذ يكون لها من
التجمع قوة تستعين بها على وعشاء الطريق وما فيه من

مخاطر ! ... وما كان المرء ليُفارق بلده في الأغلب إلا عن اضطرار

ومن ثمَّ تباينت الممالك والدول ، لا ارتباط بينها إلا في الندرة ، ولا تعامل إلا بالقدر الضئيل ! ... وعلى مثل ذلك كان أمر الشعوب . يكاد كل شعب يستقل بنفسه ، ويكتفي بعيشه ، لا يعرف من شأن جيرانه إلا ما يتناقله الرحالون والتجار وذوو المقامرات ، ومعظم ما يتناقلون أوهامٌ وأباطيلٌ ... فلا غرو أن يستقر في ذهن كل شعب أنه شعب الله المختار ، وأن بلده أمُّ الدنيا وواسطة العقدة ... فاشتدت بذلك نزعة الاستعلاء القوميَّة ، وغالى كل بلد في التجمُّع والتكثُّل ، حتى اضطبغت تلك العهودُ بصبغة الفردية والأثرة والأنافة من التعاون ، ولم تقتصر هذه الصبغة على الشعب في مجموعه ، ولكنها تدسست إليه في مختلف فئاته وطوائفه ، فتحزبت زُمَر ، وتعصبت طوائف ، وانتقلت العدوى إلى الفرد وحده ، فأصبح يستشعر لنفسه من الخصائص والمزايا ما لا يستشعر لساثر خَلق الله ! ...

لا يفرئك ما تطالعك به صحائف التاريخ من قيام
الإمبراطوريات ، التي تترابط فيها البقاع وتتحد البلدان ،
خارج ذلك بين أمم ، ولا وحّد بين بلاد ، وإنما قام عليها حاكم
واحد تسنده السلطة ، على أن أمراء الأقاليم كان لهم من
الاستقلال بالأمم ، ما يشبه سلطان العاهل الأكبر . وكثيرا
ما ارتصد هؤلاء الأمراء للفرصة المانحة فإذا هم يشقّون عصا
الطاعة ، ويأبون أن يكونوا تبعاً لأحد ...

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، بما شمل العالم من مخترعات
في وسائل الانتقال ، ولا سيما الطيران ...

يفضل هذه الوسائل تقاربت الأمم ، وتعارفت الشعوب ،
وترايل ما كان عالقا بالأذهان من أساطير وأباطيل ؛ فأنكشفت
الحقائق ، وانتشرت في سرعة البرق ، ولم يعد كل مواطن يعدّ
لده أمّ الدنيا وواسطة العقد ؛ إذ تشابكت المصالح ، وتشاركت
الأهداف ، وتيسّرت المنافع ، وأيقن الناس بحاجة بعضهم
إلى بعض ، فجعلوا يؤمنون بفضل التعاون ، ويتنسّمون روح
الأخوة الإنسانية في أطراف المعمور .

فإذا كان طابع العُهود الغواير — قبل اختراع وسائل الانتقال الحديثة — طابع الأثرة والعزلة والتكشمش ، فلا جدال في أن طابع العهد الجديد هو طابع الشروع إلى التعاون المشترك بين الدول بعضها وبعض ، وكذلك هو بين أبناء الوطن الواحد على اختلاف الطوائف والشعبيع .

وكان التنقل قديماً يتَّسم بالبطء والاتِّئاد ، ومن ثمَّ أصبحت سمات التفكير والعقل هي التروية والأناة ، وهي الفحص الطويل قبل البتِّ والحسم ، ولم يكن للزمن هذا الحسابُ الذي تقيسه به اليوم ، فالوقتُ منفسح أمام المسافر ليشهد ما يجوزُ به في تمهل ورفق لا يقنع بالطُوفة ، ولا يسكنُ إلى الإجمال !...

فأما الآن فالمسافرُ بالطائرة لا يأذن له وقته بالتراخي . في المشاهدة ، والإمعان في التفاصيل . فاضطره ذلك أن يُرهف من فطنته ، ويُنذكي من يقظته ، ويتوخى الجوهرَ والصميم ، حتى يلتقط أكثر ما يلتقط في الوقت القصير والفرصة الخاطفة ، ومن ثمَّ اكتسب المسافرُ سرعةَ الانتباه ، وقوة الملاحظة ،

وتعود البتة في الأمور في غير تردد ، واستخلاص النتائج في غير إرجاء . وتعلم كيف يستصفي زُبدةَ المتعة في طرفة عين ، حتى لا يرجع بصفقة المغبون .

وكان المرتحل قديما إذا أزمع السفر خَلَّ من المتاع ما شاء . فلَوْ قدر أن ينقل معه داره لفعل ؛ فإِذا كانت السَّفرة مغيبَ أيام أو أسابيع وإنما كانت الرِّحلة تمتد شهورا وسنين ، وربما خرج المسافر من وطنه شائِبًا فلا يعودُ إليه إلا وقد تشيَّخ ، وقد يترك الظاعن بلده . فيكادُ يودعها إلى غير رجعة ، يأْسًا من امتداد العمر به حتى يثوبَ وسوء ظن بما عسى أن يلحقه من أحداث الطريق . وكثيرا ما يستقر به المَقام في البلد الذي ينتقل إليه ، فيتزوج فيه ويُنجب ويتخذُ منه مَهْجَرًا . لا يبرحُه ما عاش

ولكن المسافرَ اليوم يختلفُ كُلُّ الاختلاف عن نظيره . بالآمس ، وبخاصة فيما يحملُ من متاع فلم يعد متاعُ المسافر تلك الكوماتِ الضخمة التي تشمَلُ التافة قبل الضروري . النافع ، ولم يعد للسفر طابعُ الكثرة والتعقيد والنزوع إلى الكُمالة .

والرفاهة ، فالطائرة تُكَلِّمُ راكبيها أن يختصر متاعه ؛ إذ يجعل له زينة لا يعدوها مجال ، فلا بد له إذن من مجانبة التكلف والزخرف ، ولا بد إذن من إظهار البساطة والبُسر ، فالأشياء مقوِّمة عنده بما لها من نفع وجدوى ، لا بما يكون لها من مظهر ورؤى . على أن ذلك هو روح العصر الحديث في مختلف مرافق الحياة ؛ فلا غبرو أن يكون جانبُه في متاع السفر أبرزَ وأوضح ، واتباعه أحق وأولى .

وهل يستطيع رفيقُ الطائرة أن يحمل معه ما يريد من مختلف الحُلل التي تقتضيها حياته في مجتمع الناس ، مثل حلة السهرة وحلة الحفلة وحلة الاستقبال وما إليها من حلل المراسم ؟ ... ألا يفضل أن يستبدل بها كلها معطفا يزودُّ عنه أذى البرد ، ويحميه من وقع المطر ؟ ... وهل يحجم عن أن يتخذ لرأسه « طرطورا » يتق به الالهوية والعواصف ، تاركا ضروبة القبعات العالية رمز الابهة والبذخ ؟ ... ولم لا يرضى المسافر بذلك والعالم كله يحنح إلى البساطة ويتخلى عن التعميد ، فهو يتخفف من كل المظاهر التي كانت تسود البرقشة

والتزويق ، وهل أدلّ على ذلك من أن حلة السهرة وما شاهاها من حلل المراسم قد أخذت تضمحلّ الآن وتزایل فلم يعد لها من الاعتبار ما كان من قبل .

وجلى أن الأذّب قد تأثر بهذا المنحى أبلغ التأثير ، فأضحت براعة الأديب المسرحى الموفق فى أن يقدم لك لوامع تجمع الخطوط الأصيلة للصورة والمشهد ، وتركزُ المعالم البارزة للفكرة والموضوع . بحيث تغنيك البارقة عن أنوار متوهجة ، وتكتفيك الخططة فى جلاء ما يريد الكاتب أن يقفك عليه ، دون تزييد فى الإبانة . واستكثر من الوصف والكشف والإيضاح .

كانت هذه السوانح ترف على خاطرى ، وأنا مُسبِل الجفنين . لا يملك النوم عيني . وما إن رفعت جفنى حتى بهرنى ضوء النهار ، فأرسلت بصرى من الطّاق ، فألقيت الشمس فى مستهل إنساقها الباسم ، وقد ازدان الأفق اللازوردى بالفسيح بخاللة قرمزية زاهية ، تمرق عليها الطائرة كأنها يراعة الليل فى شغوقها تتألق ...

ظفيق الركب يستيقظ ، فقد حان ميعاد الفطـر ...
 ولاحظ الصواني الرشيقة عليها ألوان خفيفة من أطعمة الصباح ،
 ولم نكد نفرغ من طعامنا حتى أنهى إلينا عمال الطائرة أننا مقبلون
 على « برنديزى » ...

ثم توالى تصويب الطائرة وتصعيدُها مرات ، وفي كل مرة
 تتلاحق إلينا ألون الأطعمة والأشربة في مقاصف المطارات ،
 فالأطعمة بين شطائر وفطائر ، والأشربة بين مُغليات .
 وفورات ...

حسبك الله يا شركة الطيران ... !
 لكأنك تحسبننا أطفالاً . شرهين لا يملئون النصائح
 والتشاعُب ؛ فلا تدبر لك معهم إلا أن تعاجلهم بأشبات
 المطاعم والمشارب ، مُبرقشةً ملوثةً ، فإذا هم عنك راضون
 لا يتصايحون ولا يتشاعبون ... !

وكنا في كل مطار نهبطه يتداولنا عمالُ « الجمارك » ورجال

الشرطة ، تطالعنا منهم وجوه عليها ابتسام مغتصّب وقُطوب
 صريح ، ومن عيونها تبسم نظرات تتنازعها الصرامة والرفق ،
 وفي أيديهم أختام تعلو على صفحات الجوازات وتهبط في جد
 واهتمام ! ... فإذا سألت نفسك : ألم هذه الإجراءات قيمة
 ونفع ؟ لم تطمن إلى جواب إلا أن يفترّ فتترك عن ابتسامة
 ناصلة ، أو تتخلج كفتك اختلاجة مآخرة !...

على هذا النحو جزنا ، بيرديزي ، و « روما » و « ميلانو »
 و « ميونيخ » و « فرنكفورت » و « هامبورج » ... بلاد وأمم
 لم ندجها إلا من سماواتها العالية . أو في مطاراتها المُسوّرة ، كما
 تُلحح الأطياف والأشباح خطفا ، ونحن كالمعتقلين في مركبات
 السجون ، نتقل من مثابة إلى مثابة ، غير مشاهدين مباحولنا شيئا
 إلا ما يسمح به النظر من طاقات هذه المركبات ! ...

وأخيرا حططنا رحالنا في « كوبنهاجن » ، والوقت يُرّنى على
 منتصف الليل ...

علينا أن نقضى الليلة في عاصمة « الدانمرك » ، لتُقلنا الطائرة
 ظهر غدٍ إلى « أَسْتُكْهَُام » ، ولم يكن هذا في التقدير

والحسبان ، ولكن برّناج الرحلة طراً عليه شيء من التعديل ،
للملاسات جدّت في الطريق فكان على شركة الطيران أن تهيه
لنا المبيت ، ولم يكن ذلك عليها بالأمر اليسير ، فلكى يتسنى لك
أن محتويك مرقّد في عاصمة « الدانمرك » ، يجب أن يسبق لك
حجزه منذ أسابيع ، ولكن عمال الشركة أكلّبوا على السماكات
التلفونية يتقصّون ويتعرفون ، وبعد لآي عشرّوا على نزل
عن كُتب من محطة السكة الحديد ، فأقلّتنا إليه السيارات ،
تطوى الشوارع المتألّقة تحت رذاذ المطر ...

وبلغت بنا السيارات غايتها ، فوقفت أتبين ما حولي ، فلم
أجد نزلاً أو ما يشبه النزّل ، إلا أن السائق تقدّمنا بحمل المتاع ،
فتبعناه في دهشة ، فسار بنا على نشزٍ من الأرض يشبه الطّوار
وانتهى بنا السير إلى درّج هبطناه ومثلت لحظة أتهور على ضوء
المصابيح المنتشرة ما سمّاه السائق نزلاً فإذا نحن حيال مبنى عجيب
لم تقع على مثله عيني ، مبنى مخفوض ضيق العُرض ، يمتد طوله
امتداداً ينحسر دونه البصر ، كأنه قطار من قطارات السكة
الحديدية قابع في مكانه ينتظر راكبيه ، أو كأنه أفعوان بانّ

الطول قد تَمَطَّى بجوار الطريق يَنْشُد الراحة والاستجمام ...
وفي آخر الدرج أَسْتَقْبَلْتُنَا حَدِيقَةٌ رَشِيقَةٌ ، مَا لَبِثْتَ أَنْ
أَسْلَمْتَنَا إِلَى الْبَابِ ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ التَّقَمْنَا الشُّعْبَانِ ! ...
ودخلنا ردهة أنيقة تنشق منها طريقةٌ حَسْبَتْ وَأَنَا أَسِيرُ فِيهَا
أَنَّى فِي نَفَقٍ مَحْتَفِرٍ فِي قَاعِ الْهَرِّ ، وَعَلَى جَنَى الطَّرِيقَةِ تَرَاصَفَ
حُجُرَاتُ نَاصِعَةِ الْبَيَاضِ ، طَوَّلَ كُلِّ مَهَا قَبْدُ حَطَوَتَيْنِ ،
وَعَرَضُهَا كَذَلِكَ ، أَسِيرْتُهَا قَائِمَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، كَشَأْنِ
الْأَسْرَةِ فِي بَعْضِ الْبَوَاقِرِ أَوْ مَرَكِبَاتِ النَّوْمِ فِي الْقِطَارَاتِ ،
يَدُ أَنْ الْحُجُرَاتِ عَلَى صِفَرِهَا وَافِيَةٌ بِالْحَاجَةِ ، أُنِيقَةُ الْمَظْهَرِ .
وَأَشْهَدُ أَنَّنَا لَقِينَا فِي هَذَا التَّرُّلِ — عَلَى غَرَابَةِ بَنَائِهِ ، وَضِيقِ
حِجَرَاتِهِ — كُلَّ مَا يَرْجُوهُ النَّزِيلُ مِنْ رَاحَةٍ ، وَقَدْ أَمْضَيْنَا فِيهِ
لَيْلَتَنَا هَاتَيْنِ ... وَجِئْنَا إِلَيْنَا فِي الصَّاحِ بِالْفَطُورِ ، فَإِذَا هُوَ لَا
يَقِلُّ — فِي وَفْرَةِ طَعَامِهِ ، وَجَوْدَةِ إِعْدَادِهِ — عَنْ مِثْلِهِ فِي
الْفَنَادِقِ الْفَاحِشَةِ ! ...

وَعِنْدَ الظَّهِيرَةِ كُنَّا فِي الْمَطَارِ لَسَلْفِي طَائِرَةٌ فِلَنْدِيَّةٌ ذَاتُ
مُحَرِّكَيْنِ ، فَارْتَقَبْنَاهَا وَنَحْنُ بِبِسْمَلٍ وَنُحَوِّقِلُ ، وَنَضْرَعُ إِلَى

الله أن يشمّلنا بفيض رحمته ! ...

إننا ضيوفك ، أيتها الفنلندية الصغيرة ، ساعين ، لتبلى بنا
عاصمة « السويد » ، وقد أودعناك أرواحنا وقلدات أكبادنا من
حولنا ... أعانك الله على حفظ الودعة ، ورعاية الأمانة ...
وما إن تصعدت بنا الطائرة ، حتى أسرعت تعتل غوارب الجو
فرعونة وطيش ، وهى تعابث الرياح فى مدارج السماء ، قهرؤها
الرياح هزّأت تتعلق بها أنفاسنا من خشية وذعر .

ولاحث لأنظارنا مشارف استكهم ، من خلال تفاريح
السحب ، ثم جعلت تتوضح . فحيثما أدركنا أبصارنا رأينا الخُلجان
نثار ، والجزر تكسوها المروج الخضراء ، وكأن عطرها
القواح يتطاير إلينا فى أعطاف النسيم ، يُحيينا بنفحات تنعش
المؤاد .

وهبطت بنا الطائرة تتغى الأرض المطمئة ، فنزلنا نستقبل
أحباءنا الأعزاء الذين من أجلهم رحلنا ، وإياهم قصدنا ...
وكان لقاء شوق أنيس ! ...

يلاذ الشمس في منتصف الليل

كان أول ماتوخيت من عمل — بعد أن اطمأن بي المقام
في الفندق — أن أزور « المفوضية المصرية » تلبية لدعوة
كريمة تلقيتها من وزيرنا المصري الميسماح ...

والمفوضية تشغل شقتين فخمتين ، من مبنى عظيم في
شارع مديد يحاذي البحر ، يتوسطه ممشى للترجلين ظليل ،
تهدل عايه أفنان الشجر ، وإنه في الحق لمتنزه من أجمل
متنزهات المدينة ، وما أكثر المتنزهات في عاصمة « السويد » ...
زائلت السيارة متجها إلى المبنى ، فظالعتني لافتة رشيقة
خفقت لها قلبي ، حين قرأت ماهو مكتوب عليها بالفرنسية :

« المفوضية المصرية — مواعيد الزيارة من العاشرة صباحا
إلى الواحدة بعد الظهر »

ومثلت هنيئة تجاه الالفة ، أتعللى اسم « مصر » الحبيبة ، وقد
طابت نفسي بأنه مهما تنأى الديار ، ويتباعد المزار ، فإنى ملاق
في مطارح الخربة بضعة من أرض الوطن ، بضعة من « مصر » ،

هي من روحها الصافية كفحة ، وهي من طابعها الاصيل لمحة ! ...
وأردت أن أدخل ، فألفيتُ حِبالَ باب صخيم موصد ،
فعمدتُ إليه أحاول أن أفتحه ، مسفدا كل تجربة ، فاستعصى
عليّ . وإذا السائق يهرع إلى . وإذا هو يعالجه في يسر ، فلا
يلبث أن يفتح ، وحثت الخطأ ، فاحتوتني ردهة صغيرة ذات
باب آخر مقفل ، فسق إليه السائق يفتح كما فعل بالباب الأول ،
ودخلت أرتقي بعض الدرج ، فاعترضني باب مغلق أيضا . عجا
لهذه الأبواب تحجب المفوضية عن قصّادها ، ثلاثة أبواب
محوطة بالألغاز والأسرار ، عليك أن تكنته طلاسمها قل أن
تستطيع النفوذ منها ، فما أشبه المفوضية بحصن لغير يف من
القطارفة العظام ، لا يُبيح مصوّته إلا لمن تلقى إليه كلمة السر . !
ثمّة أزرار بجوار الأبواب يجب أن تدرس نظام عملها
وتمّة لوح محلي بالأزرار أيضا عليه أسماء القاطنين في هذا المني ،
وعن كثير من هذا اللوح طاق عليه شبكة كثيفة ، منه يترسل
صوت البواب دون أن تراه ، عليك أن تخبره باسمك ، وتبسّط
له الغرض من زورتك ، فإن أذن لك انفرجت الأبواب

ترحبُ في طوع بك...

إن البواب وأتوابه في الغموض والخفاء سواء ، ليس هو
إلا طيفاً من الأطياف في عالم مسحور ، بل هو أقرب ما
يكون شهياً إلى « الرجل الخفي » في « قصة ويلز » ذلك الذي
لا تملك أن تأخذه العين ، وإن كان صوته يقرع السمع ! ...
بواب مبنى عظيم ، لا ترى له سمينة على الإطلاق ...
أين هو ؟ ...

إنه في مثابه الأنبة ؛ خلف الطاق المشتبك ... أمير خطير
يمارس سلطته في أنفة وترفع ؛ فهو على أريكته مطمئن وراء
الحوائط والجدران ، تنتقل أنامله بين الأزرار حواليه ، فما أسرع

١ - ورد ذكر « الرجل الخفي » في قصة « ويلز » وما الرجل الخفي
سوى شخصية خرافية تماطت دواء خاماً ، فأضحى الشخص يسمع صوته ، ويأتي
أحياناً ، ولكنه طيف من ملابس لا يرى بداخله جسد آدمي ، وشبه بهذا
البطل الوهمي ، بطلنا العرق ، لايس « طاية الإخفاء » تلك الشخصية الأسطورية في
تراثنا القديم . والحق أن خرافات سلطانا على النفوس أدركه رجل العلم الحديث
فأدونا في « معرض باريس الدولي » دعة العلم وحيلة من حيله الملية ، فملطوا
نوعاً من الأشعة على الشخص ، تخفيه عن البصيرة وإن كان مسوع الصوت ، يأتي
بالأحداث ، وكأنهم في هذا المرض أرادوا أن يحققوا الأساطير تحت ستار
من نظريات العلم وتجارب الأسماء .

أن تلين له مغاليق الأبواب...!

وارتسمت في خاطري على الفور صورة 'السيد البواب' في
بلدنا العزيز؛ اذ يقضي الساعات الطوال خشباً على عرشه الخشبي،
لا هو روح ولا طيف، ولكن كومة متجسمة تملأ الأبصار،
وانه ليجلس في لمسة عشيرته وأقرانه؛ كأنهم في ندوة أنيسة،
يتشرفون الشاي، ويتطارحون النقاش، ويسترسلون في
مفاكهات وأضحاح، ثم يُقبلون آخر الأمر على كتابٍ دلا
الخيرات، يجهرون بقراءة أوراده في تخشع وابتهاال...!

إن بوابنا في مصر يبدو للأنظار قبل أن يبدو المبني الذي
يقوم على حراسته، بل إن المبني ليتضائل ويتزائل خلف جرم
البواب في تنفُّخه وتشمُّخه.

دخلت المفوضية يستقبلني نفر من المواطنين الكرام،
يعملون هناك جاهدين على أن يكون لوطنهم في ذلك البلد
النأي صوت مسموع، وعلى وجوههم تتجلى سماحة واستنشار،
فهم يُمثلون في أمانة وصدق إشراق مصر، وصفاءها، وما
يُعتلج في جنباتها من آمالٍ جسام.

في رسالة مجملة من رسائل التعريف التي تنشر على السبّاح
من ضيوف « السويد » ، نقرأ هذه المعلومات الطريفة :

١ - الشعب السويدي من أكثر شعوب الأرض تجانساً
واندماجاً ؛ فليس فيه دمٌ أجنبيٌّ إلا بمقدار .

٢ - الشعب السويدي أطول شعوب الأرض قامّة ؛ فإن
متوسط طول الرجل خمس أقدام وتسع بوصات .

٣ - الشعب السويدي من أقدم الأمم الأوربية حضارة ؛
فجسده عريقٌ مؤثّل ، وعمره يستغرق من السنين عشرة
آلاف .

٤ - الشعب السويدي لا يتعجل الزواج ، بل يؤخره إلى
مرحلة الرجولة والنضج ، ولكن الزوجية على الرغم من ذلك
يسرع إليها الانقصاص في أغلب الأحيان .

٥ - الدولة السويدية من أوائل الدول التي اصطنعت
الاشتراكية في نظام الحكم .

هذه المعلومات — على ضآلتها — تكشف لنا جوانب من شخصية السويدي ذات شأن ...

فالتجانس والاندماج جمل الأمة السويدية طابعا واحدا في المزاج والعقيلة والهدف . وطول القائمة كان له أبلغ الأثر في واعية السويدي الباطنة ؛ إذ بعثت فيه نزعة الإباء والشمم ، وجنحت به إلى ما يشبه الاستيحاء ، حتى لتحسبه بادىء بدء أخوا عنجهية وكبرياء ، وما هو بذلك ، فإنك ماتخالطه ، حتى يلين لك جانبُه ، وتتجلى دمائُه ...

واعتراز السويدي بتأصل تاريخه وتأثله بمجده أوحى إليه الاستمسك بمأثور الأوضاع وموروث التقاليد

ولعل شيوع الطلاق في الأسرة السويدية مرذؤه إلى ذلك النزاع النفسى بين التحفظ والانطلاق ، فالحلة الأولى تستأنى بالسويدي في عمله ، لا يتهور ولا يسطيش . والحلة الأخرى تهفو به إلى التحرر من قيود الزواج ، ولا بقاء لهذه الفوضى التى تهز كيان الأسرة هنالك . فلا بد من استقرار ينتظم العلاقة الزوجية ، وفق تطور المدنية الحديثة ، على نحو يلائم نفسية الشعب .

ولقد كان من أثر اصطناع الاشتراكية في نظام الحكم السويدي ، في وقت مكر ، أن استتبّ روح الألفة بين طبقات الشعب ، وشاعت العدالة الاجتماعية والاقتصادية في شتى جوانبه ، وأعطت الحكومة إلى العمل في حكمة واتزان ؛ فلا تفريط ثم ولا إفراط ، يرتفع البناء على الصالح من أسس الماضي ، مستوفيا مقتضيات التطور والتجديد .

ومن مظاهر الزواج بين المحافظة والتحرر في السويد بقاء النظام الملكي فيها غير مقوض ، وما كانت الملكية لتبقى هالك لو لم تكن مقيدة ، ديمقراطية إلى أبعد حدود الديمقراطية الصحيحة ، فالملك السويدي يملك ولا يحكم ، وهو يتجافى ما وسعه أن يتجافى عن بذخ الملوك وترف العروش ، وقد نزل عن معظم ما كان له من قصور ورياض وضياع ، وأصبحت ثروته لا تزيد على ثروة مواطن من الأوساط ، وهو في هذا المسلك يضارع قرينه في « النرويج » و « الدانمرك » بل في « هولندة » و « إنجلترا » ... أولئك ملوك تقف بهم أمهم وحكوماتهم عند حدود مرسومة ، وهم لا تمتد بهم أطباعهم

وراء هذه الحدود .

وتتوضح سياسة الاعتدال عند السويد ، فيما فرضوه من قانون على الخمر ، فلم يحظروا ولم يبيحوا ، ولكن اتخذوا بين ذلك سبيلا هالهم ماجرته لإباحة الخمر من فشو الجرائم وفساد الأخلاق ، فأرادوا أن يوائموا بين الولع بالشراب والكف من شره المستطير ، واحتالوا لذلك بأن أخضعوا الخمر لنظام البطاقات ... لكل مواطن قدر مقسوم لا يعدوه ، فإذا شاء أن يشرب الخمر خارج داره كان ذلك في المطاعم ، مع الوجبات في أوقاتها المعلومة ، فما يجوز لك أن تطلب كأسا من شراب إلا إذا كنت في مطعم تصيب غدائك أو عشاءك . وبهذا التدبير زاوجت الحكومة بين الحد من الشرب وبين التوقي من مغبة الحظر المطلق . فنجحت النجاح كله فيما أخفقت فيه ، حكومة « الولايات المتحدة » بالأمس القريب ؛ إذ حرمت الخمر على الإطلاق ، فراجت على الأثر تجارة الأشرطة الرديئة والفسادة في السوق السوداء ، واعتاض الناس بالمغيبات الضارة والمخدّرات الويلة ، فانعكست آية الحظر ، وساءت

الحقبي . فلم تجد الحكومة مفيضا إلا أن تصافي الخمر ، وإلا أن تتخلى بين الكئوس والناس .

و « السويد » بلد نصفه أوكثر من نصفه غابات وأحراج ، فلا غرو أن يكون الخشب ومنتجاته ومشتقاته من أكبر مصادر الثروة القومية فيه ، والمزارع هنالك تبلغ نحو العشر من مساحة الأرض ، وللأنهار والبحيرات مثل هذا القدر ، وللمراعى أقل من ثلاثة في المائة .

وأكثر شيء انتشرا في « السويد » هو « التلفون » ، فإن عدد آلاته يزيد على ثلث السكان ، فثمة مليونان ونصف مليون من هذه الآلات لسبعة ملايين ، هم أهل « السويد » وكانت « السويد » إلى عهد قريب بلداً زراعياً لا يعرف غير الزراعة مورداً للثروة ، على قلة المزارع ، فتغلغل الفقر ، وتخلفت الأمة ، حتى بدا فيها عهد التصنيع ، وسمت إلى استغلال ما في المناجم والغابات من كنوز فإذا « السويد » في قصير من الزمن ذات مصانع ومعامل تملأ الأكفاف ، وإذا الأمة صناعية تنقلب في أعطاف الرفاهة والتعميم

ما أشبه الأمة المصرية في هذه الناحية بأمة «السويد»
شكونا من مثل ما شكّونا ، ونعالج أمرنا اليوم على نحو
«ما عالجوا» ، ولقد بدأت «مصر» وثبتّها في هذا المدى في طمّاح
وجيد وذّاب ، وما أيسر الغايات على دائب تلمّوح ...

ما أعجب تلك الظاهرة الطبيعية التي تتميز بها بلاد الشمال
إذ يمتد النهار في أشهر الصيف، فلا يزال ينتقص من أطراف الليل
حتى ليكاد ينسخ آيته في الكون ! ...

إن ضوء الأصيل يظل هنالك مضروب الرواق على جوانب
الآفاق ، لا يبرح ولا يتزحزح . فإذا انتصف الليل هبطت ظلة
حفيفة رقيقة ، لا تلبث أن تتقشع متزايلة أمام ابتسامة الفجر
المبكر ، وإنها لا ابتسامة تؤذن بضحكات الشمس في عرض السماء
تجرأ أذيالها المعصفرة .

إنك لتضيقُ حقاً بذلك النهار المكسّال ، بل ذلك القعيد
العبيد يتشبث بمجلسه لا يتحاجل عنه ، يفتاتُ على الليل غير آبهٍ ،
ويغتصبُ حقّه في جسارة واجترأ . والليل واقفٌ منه وقفة
الصاغر الذليل خلف الأفق ، ينتظر مسترقاً في الحين بعد الحين
نظرة الحق إلى ذلك النهار المستبد الغشوم ، وهو سادر في

غُلِّوْاَنَّهُ ، لَا يَأْذَنُ لِلَّيْلِ فِي الظُّهُورِ إِلَّا قَرَّةَ مُتَضَائِلَةٍ يَتَعَثَّرُ فِيهَا
الدُّءُ بِالْحَتَامِ .

إِيه يَالَيْلِ ! ...

مَاذَا أَبْطَأَ بَكَ ، وَمَاذَا قَبَّدَ خَطْوَكَ ، فَاسْتَوْحِشْتَ الدُّنْيَا
لِظُلْمَتِكَ ، وَشَاقِبَا مَا تَنْعَمُ بِهِ مِنْ سَكِينَتِكَ ؟ ...
حَقًّا ، خُلِقَ الْإِنْسَانُ أَلَوْفًا ، وَقَدْ عَرَفْنَا اللَّيْلَ يَخْلِفُ النَّهَارَ ،
بِذَلِكَ جَرَتْ سَنَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمَضَى عَلَيْهَا رَكْبُ الْأَيَّامِ فِي
سِيرِهِ ، فَأَنَا هُنَا أَتَفْقِدُ الظِّلَّةَ ، وَأَشْعُرُ لِفَقْدَانِهَا بِالْوَحْشَةِ ، وَأُرْتَقِبُ
مَهِيْطَهَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ

إِيه يَالَيْلِ ! ...

أَيْنَ أَنْتَ هُنَا مِنْ لَيْلِ الشَّرْقِ الْعَتِيدِ ؟ ... ذَلِكَ اللَّيْلُ الْعَظِيمُ
الَّذِي يَصْبُو الْمَغْنَى الشَّرْقِيَّةَ إِلَيْهِ ، فَيَفْرَغُ لَهُ بِالْحَانَةِ وَأَنْغْلَاهُ ، يَسَاهِرُهُ
وَيَسَامِرُهُ ، وَيَصَافِيهِ وَيَنَاجِيهِ ، وَبَعِيْنَهُ يَفْقِدُهُ ! ...

إِيه يَالَيْلِ ! ...

أَيْنَ بَرِيقُ نَجْمِ مَكِّ الْأَلَاةِ ، وَبَهْجَتِهَا الْفَتَانَةِ ؟ ... إِنَّهَا
لَتُنْدُو هُنَا شَاحِبَةً مُسْتَخْذِيَةً فِي ذَلِكَ اللَّامِ الْهَزِيلِ ! ...

إيه ياليل ! ...

أنت ها شيخ هارب ، وخيال ناصل ... حياتك لحظات
خو أطف ، أما أنت هنالك في سماء الشرق ، فإن حياتك تطول
وتمتد ، وما أحيلها من حياة ! ...

إيه ياليل ! ...

الصَّبْبُ الوَهْثَان من بنى الشرق ، يلوذُ بأستارك ، ويركن
إلى جوارك ، تَلْتَلْ له فيك الخلوة والمناجاة ، ويطيب له معك
التوجع والشكاة ... حَضْنُكَ عليه في وجده وشجوه خنون ،
وصدرك على أسراره وطواياه أمين .
نهارى نهار الناس حتى إذا دجا .

لىَّ الليلُ هزنى إليك المصاحجُ
أَقْصَى نهارى بالحديث وبالمنى

ويجمعى والهمَّ بالليل جامعُ

إيه ياليل ! ...

أنتَ هنا فى بلاد الشمال بين قوم لا حاجةَ بهم إلى جوِّ
الحفايا والأسرار ، فهم يَأْبُونُ المتعة وراءَ الأستار ، وهم

يَنْشُدُونَهَا صَرِيحَةَ جَهِيْرَةٍ فِي وَضْهِ الشَّمْسِ وَرَائِعَةِ النَّهَارِ ...
العاشق يترشف قُبْلَتَهُ كَيْفَمَا شَاءَ ، عَلَى أَيْ نَحْوِ شَاءَ ، تَحْتَ
الْجَمِيلَةِ أَوْ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، فِي مَسَرِّهِ الْهَوَاءِ أَوْ فِي بَحْرِ
الْمَاءِ ، لَا سِتَارَ يَطْوِيهِ ، وَلَا ظِلْمَةَ تَخْفِيهِ .

أَنْتَ هُنَا بَيْنَ قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِالْمُنْعَةِ السَّافِرَةِ ، وَلَا يَعْرِفُونَ
مُدْعَاةَ لِّلْإِحْتِجَابِ وَالْإِحْتِشَامِ ... وَلَمْ يَلْحَقُوا فِي الْحُبِّ ، وَهُوَ
تَعْدَمُ غُرْفٍ لَا حَيَاءَ فِيهِ ، وَالثَّفَ لَا تَكْبِيرَ عَلَيْهِ .

الْحُبُّ هُنَا شَأْنٌ طَبِيعِيٌّ ، يَنْمُو وَيَتَرَعَّرُ فِي الضَّوِّ الْوَضَّاحِ ،
وَلِإِنَّهُ لِحُبِّ هَادِيٍّ لَطِيفٌ يَشْفَى وَيُرِّقُ ، كَأَنَّهُ نَسَمَاتُ
الْأَصِيلِ ، تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ طَمَآنِينَةً وَتَهْدِي إِلَى الْقَلْبِ رَاحَةً ...
فَإَيْنَ هُوَ مِنَ الْحُبِّ الشَّرْقِيِّ الْعَارِمِ . ذَلِكَ الَّذِي يَعْنَفُ
يَصَاحِبُهُ حَتَّى يُذْيِبَهُ ؛ كَأَنَّهُ لِفَصْحَاتِ الْهَجِيرِ الْمُنْضَرَّمِ ، تَذْرِفُ
لَهُ الْأَعْيُنُ سَاكِبَ الدَّمْعِ ، وَيَتَفَطَّرُ فِيهِ الْقَلْبُ مِنْ حُرْقَةٍ
وَالْتِيَاجِ ، وَيَنْشَقُّ بِهِ الصَّدْرُ مِنْ تَأَوُّدٍ وَزَفِيرٍ ... ؟

مَا أَشْبَهَ الْحُبَّ هُنَا فِي الشِّمَالِ بِالْحُبِّ بَيْنَ زَهْرَةِ رِفَافَةٍ
وَمُرْفُورٍ وَثَنَابٍ ... لَا يَكَادُ ذَلِكَ الْفَرْقُورُ يَهْطُ عَلَى فَنَنِ

يودعه القَبلة العَجلى ، حتى ينطلقَ في مَريح يتغنى ! ...
فهل تقنع نحن الشرقيين بمثل هذه العاطفة الهَيَّنة التى تمر
كخطفة البرق وطرفة العين فى هَوَادة ولين ؟ ...

هيهات ذلك هيهات ! ...

فليدع لنا الغربُ ليلنا الطويلَ الموصولَ ، حيث نهم
فيه مع الظلمة فى مصافاة ومناجاة ، وحيث نستشعر فيه للأشباح
والأطياف حياةً أى حياة . اللمسة الخفيفة لها مُتعة عميقة ،
والخفقة العابرة لها معنى جليل ، ولا أشهى من أن تتناغى الشفاه
حيث لا تبص العيون ! ...

الظلام ! ...

ما أروع الظلام ! ...

وما أطيب هدأته ليستغرق النائمُ فى سُبات ! ...
فأنتى لمن ينشد النومَ أن ينعمَ براحة وسكينته ، وهذا
الديدبانُ العنيد من ضوء النهار عن كتب مه ، يرصد له فى
اجترام ، ويعايشه فى سخرية واستهزاء ؟ ...
على أن بلاد الشمال تقصصُ من ذلك النهار الظالم الكشوم

على مَدَار العام ، وبذلك يأخذ العدل مجراه في نظام الكون
العجيب ! ...

هذا النهارُ الطويل — نهار الصيف — يَحُورُ نهاراً
ضعيفاً مَسْهِضَ الجناح ، في أشهر الشتاء ، فهو لا يجسر أن يرفع
هامته ، وقد جثم عليه ذلك العملاق من ليل داج تتلاحق أمداده
طلبات بعضها فوق بعض ! ...

لا يكاد نهار الشتاء يظمر في الساعة التاسعة من صباح اليوم ،
حتى تَغَيَّبَهُ الحُلُكَةُ في الثالثة بعد الظهر
وهكذا يقف الزمن الأزلَى السرمدي وَرَقَةً الحَاكِمِ المنصف ،
يداول بين ضوء النهار وظلمة الليل نشوة الغلبة والانتصار ،
وذل الهزيمة والخضوع ! ...

جزيرة الأحلام...

يسير عليك أن تلم بصورة واضحة لمدينة « أَسْتُكْهَلْم »
حتى رسمت في مخيلتك صورة الخُلجان متناثرة ، ينساب فيها ماء
« قراق » ، وهي تجوس خلال جُزُر صغار رافلة في وُشَى
أخضر ناضر .

تقول الحكمة العربية الماثورة : ثلاثة يُذهبن الجزن ، الماء
والخضرة والوجه الحسن ... وهذه المعالم الثلاثة هي طابع
ذلك البلد الطيب ، فحيثما تَرَجع البصر تطالعك تلك المفاتيح ،
وتشهد كيف يتألف مزاج من جمال الكون تعاونت عليه
فطرة الطبيعة وصنعة الإنسان ... !

ليست مدينة « أَسْتُكْهَلْم » عاصمة كشأن تلك العواصم التي
تُختق بأبنية تطاول وطرقٍ تتزاحم ، وإنما هي معرض رائع
من مُتنزهات متصل بعضها ببعض ، وما انتقالك بين هذه
المتنزهات إلا تطواف بأرجاء المدينة ذات الطول والعرض ... !
ما أكثر الجزر هنا وما أجملها ... !

من بينها جزيرة^١ هي أوسعها شهرة ، وأعمرها بالزوار ،
لوقوعها غير بعيد من قلب المدينة ، « جزيرة جُورجاردن » ،
أى « حديقة الغزلان » ، وإنما أطلق عليها هذا الاسم ؛ لأنها
كانت في العهد القديم مراتع للظباء ، يؤمها الهواة للاصطياد .
وطاب لنا أن نقصد تلك الجزيرة التى يحق لها أن تسمى
« جزيرة الأحلام » ... فاتخذنا إليها زورقا بخاريا ألقيت
قيادته إلى الجنس اللطيف ، فهنا غادتان تبدوان فى لبوس البحارة ،
لبوس رشيق يزيدُهما من فتنة وسحر ... ولقد استبان لى أن
الجنس اللطيف يسيطر على البحر فى قيادة أمثال هذا الزورق .
فما أشبه غيدَه بِمُحُورِيَاتِ البحر اللواقى تبالغُ فى وصفين
الأساطير : ... وإنهن حقاً لمهترات فى أداء مهمتهن ، نشيطات^٢
فى إدارة الدِّفَاف وشد الجبال ، أنيسات يجعلن من أنفسهن دليلاً
يرشدن السَّيَّاح . ويزودنهم بطرائف المعلومات والأخبار ...
والجنس اللطيف فى هذا البلد يزاولُ أشتاتاً من الأعمال ، ولكنه
ما زال على عهده ، رقيق الحاشية ، رشيق الحركة ، يجتذبُ العين
بمحسن الزينة ، ولطف الدَّل ، وأناقة الهندام .

تهادى بنا الزورق على صفحة الجدول ، والغادتان تتحكان به
في ملكة الهواء والماء ، ونحن مستسلمون لهما تنصرفان بنا كما
تَهَوَّيان . وليس بجديد أن يُسلم المرء أمره إلى « حواء » ،
تمضى به في مُلتطَم الحياة كما تشاء ، فهذا حكم القدر مسطراً في
لوحه منذ الأزل ، وسيظل الحكم النافذ إلى غاية الأبد .

وتراءى لنا عن اليسار شارع « ستراند فاجن » العظيم ، حيث
تقيم مفوضيتنا العزيزة ، وعن اليمين معالم الجزيرة بما فيها من غابات
ومتنزهات ومروج ، تعلو نجادها تارة وتهبط وهادها تارة أخرى ،
فحارت عيوننا بين الشاطئين ، لا نكاد نتملى فتنة الشاطئ الأيسر
حتى يلفتننا إليه الشاطئ الأيمن بما حوى من كنوز الطبيعة
الزاخرة .

وبينما نحن ماضون ، إذ لاح لنا العلم الأخضر بهلاله وأنجمه
البیض ، وهو على ساريتة العالية يخفق ، فما لبثت قلوبنا أن
تحفقت معه ، وأشرعنا إليه أبصارنا نحتلى طلعه ، ونبعث إليه
تحية عامرة تحمل التهنة إلى الوطن العزيز ، إذ كان اليوم يوافق
يوم العيد الأصغر ، عيد الفطر .

وكنّا في الحين بعد الحين نسمع صوت الدليلة ، تشرح لنا
ما نشهد من معالم الطريق ؛ فإذا صادفنا مَرَفًا تلمع زوارقه في
صُفرة فاقعه ، وهى ترجح على أديم الموج ؛ كأنها « السابحات
الفاتنات » ؛ — سمعنا صوت الدليلة يقول : « هنا ناد
للزوارق !... »

وإذا بسقت الأشجار وتكاثفت ، تحاول أن تخفى بين أحضانها
المنازل الأنيقة ، أشارت الدليلة إليها تقول : « هنا موى كثير
من السفارات !... »

وتضايق المجرى الذى نسلكه ، حتى غدا قناة تكاد ضفّتها
تتلامسان ، فإذا الغصون المتشابكة تُقيء علينا عُنسًا وارفًا
الظلال ، وتفيض علينا السكينة والصفاء !... »

ومضى بنا الزورق فى هينة ويُسّر ؛ كأنه يحوز طريقًا
معبّدًا فى روضة زهراء . وأخذت عيوننا ربوة مُعشّوشة
فى الجزيرة ، فقالت الدليلة متهدّجة الصوت فى رقة وحنو :
« هذه خميلة الحب !... »

حقًا ما أجمل هذه الربوة التى سوتها يد الطبيعة فى غير

تكلف ، وأضفت عليها غلالةً رقيقة من نسج الخيال
والأحلام ، وما أولاهما بأن تكون محراباً تتناجى فيه القلوب
حين يؤلف بينها حب شريف وهيام غفيف !...

وهذا قصر رائع ... إنه قصر « الكونت برنادوت »
— شهيد فلسطين — ذلك الرجل النبيل الذى اتزع نفسه من
مباهج عيشه ، وألقى بحياته فى أتون الشرق المستعر ، فأنت عليه
النار ، نارُ الغدر والعدوان .

وذلك مبنى عتيق ، عليه جلالة ، وفيه طراقة ، تحف به
خضرة كاسية ... إنه مطعم من مطاعم القرن الثامن عشر ،
شيخ ركبته السنون ، ولكنته ما قىء يعمل فى همه الشَّاب
ونشطته ، محتفظاً بطابع عصره الخالى ، وتقاليده الماثورة ،
ومن لطائفه أن له طائفةً من مركبات نعمة تجرُّها الجياد
المطهَّمة ، وهى تذهب لتقلِّ إلى المطعم رواده فى حفاوة
تكریم

وتسلل الزورقُ من تلك القناة الحاملة ... واتسع الأفق
حيال الأعين ، فإذا نحن فى مياه البلطيق ، ... وتباعدت عن

اليسار معالمُ المدينة ، فالتزم الزورقُ أن يَحاذي شاطئ الجزيرة .
عن النمين ، ومررنا في الجزيرة نفسها بأبنية جميلة . من بينها معهد
للصم والبكم ، وملجأ للعجزة ... يا لهؤلاء السعداء ممن نكبهم
الزمن من خلق الله ! ... ما أجدرهم بأن ندعوهم التعناء
للمحظوظين ! ...

وتجملت لنا تحفة نادرة هي قصر الأمير « أوجين » ، أحد أمراء
الأسرة المالكة . بارحه صاحبه إلى العالم الآخر منذ سنواتٍ قلال .
موصيا بأن يكون من بعدُ مُتَحفاً للأمة ، فزلنا عن الزورق لتسعيم
النظر بطوفةٍ في ذلك القصر البهيج ، وحديقته الفيحاء .

كان هذا الأميرُ في مقدمة الفنانين الأصلاء ، وكان كذلك راعياً
من رعاة الفن الأعلام ، وما هذه الخيلة التي تجدد بقصره إلا
نفثةٌ من نفثاتِ فنه ، أو بَشَّة من بَشَّاتِ جِوَاه ، بل إنها
بَصْعة من قلبه الصني ذوقه الرفيع ... وإن القصر ليحفلُ
بالأواح فنية رائعة تشهد لصاحبها الأمير بالبراعة ، بيد أن خميلته
هذه أجملُ ألواحها وأزخرُها بالحوية ، في صدرها تعتلج أنفاسُ
الحُبِّ ، فتَجَبَّل منها لوحاً حياً يتجدد على الزمان .

تجوس خِلال تلك الحيلة القينانة متقللا بين أفيانها الحاتية
هائىء النفس بما تشهد من رياحين يؤلف بين ألوانها نسق جميل
وبين الخطوات والخطوات فى هذه الكعبة الغنيمة التى أقيمت
لعادة الجمال ، يطالعك أثر رائع يجتذب عينيك ، فلا تملك إلا
المكوث حياله تستجلي ما فيه من سحر خلّاب... حياض وجداول
وفوارات تتمدد فيها حسان عاريات ، يتخذن فى ضجعتن
أوصاعا تكن فيها الفتنة ، ورذاذ الماء يتساقط على أجسادهن
اللّسجية كأنه يدعدهن ويعابهن ... وربما أطلت وقوفك
وأنت ترعى بعين الهيمان هؤلاء الحسان . فيخيل إليك لفيف
الحيوية فىهن أنهن على وشك التغير من أوضاعهن ، متقلبات
يمنة أو بسره ، أو ناهضات يصرفن عن الحياض ليكتسبن ،
فطل مانلا لا تبرح ، وهن فى مُستقرهن راقدات ، لا يعان
عمر الوقت ، فاهن من مكان عالمك الغانى يشاركك فى
حياتك الضحلة الملول ، وإنما هن من دنيا الفن ، مكتوب
لهن الخلود ! ...

وهكذا تعمرُ الخلة بروائع التمايل مشوثة هنا وهناك ،

تارة تحتضنها الأشجارُ تكادُ تخفيها بين الظلال ، وطورا
تكسوها غلايلُ من الغصون والأفنان ، وحينا تبدو ضاحية
تسفر للناظرين ...

خرجنا من خيمة الأمير « أوجين » لتساءل : إلى أين
المسير ؟ ...

فاتتهى إلينا صوت يقول :

إلى « سكانسن » ...

وتداني صاحب الصوت منا مبتسما في لطف ، وقد أدرك
أنا غرباء ، وواصل حديثه إلينا يقول :

إن « سكانسن » جزء مهم من جزيرة « جورجاردن » ، لها
المكانة فيها ، بل في العاصمة نفسها ، بل في « السويد » كلها .
ولما استزدناه من حديثها ، قال :

ما يجعلني أن أظللَ التحدثَ إليكم عنها ، فأفسدَ متعنتكم
بها ، فعليكم أن تستظنوا بأنفسكم أسرارها ، وحسبكم أنا
نسميها هنا « متحفَ الهواء الطلق » ، وهو ضربٌ من المتاحف
طريف ، تميزت به بلادُ الشمال ، وخاصةً « السويد » . ولكني

أَسْأَلُكُمْ أَوَّلًا . هل أصبتمَ غَدَاءَكُمْ ؟ ...

فأجناه بالنقي ، فصاح من فوره :

إذن هيّا إلى مَطْعَم « بلناسرو » ؛ لتستمتعوا بجلسة هائلة في
سحره المشع بروح الشاعرية والموسيقى ؛ إذ أقيم هذا المَطْعَم
تمثيلا لذكرى شاعر سويدي عظيم ، سُمِّيَ باسمه ، وقد كوفي
الشاعر بهذا التكريم ؛ لأنه أحبَّ جزيرة « جورجاردن » وخلد
مفاتيحها في قصيدته الرائع ، والقوم هنا يحتفون بذكره ،
فينظمون له حفلات موسيقية في مختلف أنحاء الجزيرة
كل عام .

وقصدنا إلى « بلناسرو » ، فإذا هي مَغنَى لطيف ، يعتلى ربوة
زهراء ، رحيب المستشرق ، له حديقة أنيقة يستقبلك في مدخلها
تمثال عاري ، يتوسط بركة صغيرة ، وقد حمل في يده فؤارة عالية ،
لا يزال ما يتساقط من مائها عليه ، حين تتناوح الرياح .

واخترنا مجلسنا في المستشرق ، فأقبلت علينا — ونحن
ننطق — جُوفَةٌ من الموسيقين يشنفون الأسماعَ برفائق النغم
وهم في أزياء القرن الثامن عشر ، لفيضوا على البقعة روحا من

« الرومانسية ، المحيية ، وليحيوا ذكرى شاعر الجزيرة
الخالدة : « بلانس » .

وهضنا بعد الغداء إلى 'متحف الهواء الطلق' « سكانسن »
فألفيناه مشبدا في موقع حصن قديم لا تزال بعض معالمه الأثرية
قائمة ، وعلى شرفته العالية بضعة 'مدافع' هرمة تهاكت في
مصر بعضها ، مُتَجَهِّمة الوجوه ، ترمق المدينة المنبسطة أمامها في
النهيل الرحيب بنظرة زهو واستعلاء؛ كأنما يخيل إليها أنها ما برحت
« سيدة الموقف » ، تصون الذمار ، وتحمى الأهل والديار ، وماهى
إلا أثر دارس يجاهد ولاية الأمر في الاحتفاظ به على سبيل
التذكاري ! ...

على أننا مررتنا بهذه المدافع - أو بالأحرى : حطام المدافع -
نجشها تحية إجلال ، كما نجى شيخنا وغورا علت به السن ، حتى
أبطلت حركته ، وكانت له في سوائف الأيام عظام وأجنادا
يشغل « متحف الهواء الطلق » ، رقعة شاسعة تضم أطرافه ،
ففيه مجموعات من قرى وحدائق وغابات ، حافلة بالأناس
وصنوف الحيوان .

فهذا المتحف صنوفه ، هو « متحف الحضارة » ... ولكن
شئان ما بينهما ! ...

« متحف الحضارة » يصور معالم الحياة الاجتماعية للبلد ، في
شهادة مصنوعة ، وتمثيل صوامت ، وألواح فيها أحداث
التاريخ قريه وبعيده ، يحتويها جميعاً مبنى واحد تحت سقف واحد
ولكن « متحف الهواء الطلق » يعرض هذه المعالم طبيعياً المشاهد
مشبوبة النشاط ، فيها وميض الروح ! ...

« متحف الحضارة » يرينا التاريخ في ألقاف من الأكفان
والرؤوس ، أما « متحف الهواء الطلق » فإنه يرينا الماضي ، وقد
عاد إلينا يدب على قدميه في حيوية عارمة ! ...

« متحف الحضارة » لا يبدو أن يكون مجلداً فخماً ، تطالع
فيه أروع صحائف الأمت ، أما « متحف الهواء الطلق » فإنه
معرض تشهد فيه نماذج بشرية على مسرح الطبيعة ! ...

كان « متحف الهواء الطلق » في بداية أمره فكرة طافت
بخيال أستاذ سويدي من المدرسين ، فلقيت الفكرة قبولاً عند
مردة الأمور ، وما لبثوا أن حققوها على هذا الوجه ، وأتيح

للناس أن يَرَوْا ما فيها من طَرافة ، فأعجبوا بها أيما إعجاب ،
وسرعان ما انتشرت متاحفُ الهواء الطلق في مُختلف بلاد
الشمال .

ولكى تبدو هذه المتاحف صادقة المظهر ، أمينة المخبر ،
الا زِيَفٌ فيها ولا تصْنَع ، نقلت إليها الدور من مواطنها
الأصيلة ، وأقيمت على نحو ما كانت تقوم ، محتفظة بكل
ما لها من مميزات ، لم يتبدل فيها شيء من الأثاث والنسق ، فهي
كما هي في شتى ظواهر حياتها القديمة .

لم تنقل الدور وحدها إلى هذه المتاحف ، بل نُقلت معها
كذلك طواحينُ الهواء ، والكنايس العتيقة ، وظُلمَلُ
النواويس ، وما إلى ذلك من طرائف الآثار .

وما كان عسيراً أن يتم النقلُ على وضع دقيق ، فإن هذه
الآثار مصنوعةٌ من الخشب ، قوام العيش في ذلك البلد .

شدها يطيب لك أن تجول في متحف الهواء الطلق ، حيث
لا سقف يُظل ، ولا أسوار تحُد ، فإذا أنت تجوز القرى
واحدة تلو واحدة ، فتطالعك الحوانيت زاخرةً بالبضائع

الحلية من منسوجات وُطِرَف ، وقد أشرقَت وجوه البائعات
الحسان على أبوابها في حُلل تاريخية ، فاقعة اللون ، يتعاشق
فيها الزُخْرَفُ ... وفي ساحة القرى تَترأى لك جوفة
مُوسيقية في لبوسها الوطني ، وهي تعزف مقطوعات شعبية
يُمثلُ في ألحانها الطابع السويدي العريق ، وحِبال الجوفة
مرقصٌ يَجمع فيه الراقصون مُحَلَّيهم ثياب زاهية
موشاة .

وإنك لتسير وسط هذا المهرجان البهيج ، حين
الخطو ، منشرح الصدر ، تعترضك حظائر القرى ، وهي تعج
بالماعز والأبقار ، فتَهْفُو نفسُك إلى أن تدخلَ بعض ما في
القُوى من الدور ، لتكشف ما هناك من خَبَائِلَ ، ولا تكاد
تخطي عتبة الباب حتى يلقاك مَنْ يرحبون بك فيروعك
أنهم قُطَّانُ الدُّور الأصلاء ، زراعُ العهد الغابر ، وقد تَنَقَّصَ
بهم العمرُ حتى أسلمهم إلى يومنا هذا ، دون أن تستبينَ عليهم
الشيخوخة ، وتنضب فيهم القُوى ، وهم يحوسون بك خلال
الدار ، يشرحون لك ما غمض عليك من مَرِيَّاتٍ ومشاهد ،

ختملُ : كيف كانت معاش أهل الريف في العهد السحيق ؟
هنالك في صدر البهو ترى القرن ، قلب الدار الصميم ،
حنه يشيع دفء الحياة . فلا غرو أن يؤليه القوم أكبر العناية
ولا بألوه زخرفاً وزينة ، حتى يسدو قطعة من الأثاث عليها
طلاوة ورويق . . . وغير بعيد من البهو تواجهك حجرة
ازدحمت فيها المناسج والمغازل ، وفي ركنٍ منها تلمح مرقداً
عجيباً أقيم في داخل الحائط ، وأسدت عليه أستار مختلفة
ألوانها تسر الناظرين

فإذا تابعت طوافك بحجرات الدار ، ألفت المطاحن
والمعاجين والطسوت وأدوات الركوب وآلات الصيد وعدة
الحدادة والنجارة ، وما إلى ذلك من مرافق العيش . . . ومتى
بارحت الدار ، فظرت فيما حولها ، بدت لك المناحل
والعرائش والآبار ، وسائر معالم الريف القديم .
تقع عينك على هذا كله في سباته الأثرية ؛ وكأنما قد رجع
إليه رفيف الحياة ، فإذا هو زاه خفاق .

وهذه القرى لا تتشابه فيما لها من أوضاع ونظم ، فإن كل

قرية تحمل طرازها الخاص في هندسة البناء ، وفق العهد الذي عاشت فيه .

وما أنس لا أنس ذلك السَّط العجيب في تشييد طائفة من الدور ؛ إذ تقوم على عمد من حجارة أو خشب ، ترتفع عن الأرض بضعة أمتار ، فتراها الأعين من بعيد كأنها أشباح لها أرجل وسيقان .

وأروع منها منظرا تلك القرية « اللاية » اللطيفة ، ذات الأكواخ المستديرة ، تحيط بها المراعي ؛ وتتباثر بينها منافع الماء ، وترح فيها الوعول ، حتى إن جوها يعج بأسراب البعوض ؛ سيد مناطق « اللاب » ..

في هذا المتحف الطلق الهواء ، تتجلى معالم الحياة السويدية ، ريفية وحضرية ؛ فقد أفضى بنا الطواف إلى حي من أحياء مدينة تاريخية ، فحللنا مبنى أثريا مكتوبا على بابه أنه « صيدلية » ، وعرفنا أنها كانت لبعض الغابرين من ملوك « السويد » ، ألحقها بقصره ، واختص بها نفسه وذويه ، وجعلها ذات أقسام ؛ فهذا مخزن للأدوية برفوفه وخزائنه ومقاعدته ،

ترى فيه القوارير والحقاق والصناديق ؛ عليها مظهرها القديم المألوف ، وعلى مقربة من مخزن الأدوية معمل تتكاثر فيه الأنايق وأواني الغلى والصهر والدق والوزن . وهناك مكتب الصيدلى عليه المجلدات والأوراق والمحابر .

وكذلك تنقل فى ذلك المتحف العجيب ، مائتا عينيك من مشاهد التاريخ ، ومن صورهِ الحية الناطقة ، وقد ثارت فيك مشاعرُ وأحاسيسُ ؛ وإذا أنت قد اغتيمت خبرة أحقاب حلوال ، ومتمعة حَيَوَاتٍ عِرَاضٍ ، فى بضع ساعات من يوم بهيج .

والآن إلى الوطن الذى تألفه مخلوقاتٌ من أصدقائنا غير الآدميين ... بقعة متراحة فيها تتجاور فئاتٌ من طير السويد وحيوانه ، لكل فئة مأواها ، وقد أعد إعدادا دقيقا يحاكي موطنها الذى جُلِبَتْ منه سواء بسواء .

هى حديقةٌ للحيوان ذاتُ صبغة محلية ، شيدت على هضبة جمعت فى كيانها بين الغابة والمرج والبحيرة والجبل ، إذا جُلّت فيها صاعدا هابطا ؛ فكانت تشد صيدا . والفرائس ملك عمن

كتب ، ولكن ماله منك بعيد . ولبت شعري أى صائد يحمل
بهذه الروضة الفواحة تراود رأسه نزوة القتل والاقتراس ؟ ...
حسبك أيها الصائد المتطلع أن تشرف على هذه البركة اللطيفة
بين أحضان الغابة ، تتملى ما تزخر به من فتنة وسحر ... الطير
الألوف من بطء وإوز ودجاج خلأب الألوان ، طريف
الاشكال ، يمرح طليقا على الضفاف ، متلعبا بالماء ، أو محو ما في
السماء . وبين القينة والقينة يخرج من الغابة ، السنجاب ، ذلك
الحيوان الطريف ، وهو يتوآب كالقط الصغير منتفش الذيل ،
براق العين ، يتشمم بأنفه المستدق ، باحثا عن طعام ... وقد
تسوقه خطاه إلى مجلسك ، فلا يستوحش منك ، وإنما يتلطف
لك ، مُطوّفاً حولك ، موصول النظر بك وأنفه المستدق لا يفتأ
يتشمم ، فتفهم ما يعنى ، وتلقى إليه بقطعة من فطير أو حلواء ،
فما أسرع أن يمسك بها في احتياج ، ويتخذ من فوره وضعا غريبا
يثير انتباهك ؛ إذ يستوى على عجزه ، معتمدا على ذيله وقد
امتدت كلتا يديه بالطعام إلى فيه ، وانهاه عليه قرصا كما تفعل
الجرذان ... !

وتسلك طريقك المتعرج إلى قمة الصخر ، موطن الدببة ...
وباله من موطن رائع لهذا الحيوان المخوف ، فما أجمل الدببة في
ياضها الناصع ، يلتمع فراؤها التمساع الحرير النمين . وإنك
لتشهد لها أنيسة يتودد محيّاها إليك ، خفيفة الحركة على جرمها الثقيل ،
تتقافز على الصخور في بركتها الجبلية ، تارة تنطس إلى الأعماق ،
وتارة تطفو منابجة إلى الأمواج المتلاطمة تعابثها مُعابثة
الأطفال .

وتمضى في جوارلاتك ، تاركا حديقة الحيوان ؛ لتبحث عن
متعتك الحضرية ، متعة القرن العشرين ، فلا تبخل بها عليك
سكانس ، ، فما هي متحف وحسب ، وإنما هي مجمع لأنواع
المباهج يلتقي فيها القديم والحديث .

ثمّة مسرح فسيح ، تقام فيه حفلات الموسيقى والغناء ، وثمّة
مطاعم ومشارب فيهما ما لذّ وطاب ، وثمّة سلام متحركة تريح
قدميك من عناء الصعود والهبوط ، وثمّة مستشفيات عالية
تطل بك على أمتع مناظر العاصمة .

زرنا أهم ما في جزيرة جورجاردن ، من معالم ، وآف لنا

أن تسرب إلى قلبها ، لنستجلى مستودع أسرارها ، حيث يكمن
الجوهر الأصيل لفتنتها الخلابية .

خير أن تقلت سياره ، وأن تجتأب قلب الجزيرة في تباطؤ
واتئاد ، فسرعان ماتحويك الغابة ، وإذا هي حيناً كثيفة ملتفة ،
تغشاها غلالة من ظلام ، لا ينفذ إليها النور إلا قطراً من أعاليها
كأنه نثار اللؤلؤ ، وإذا هي حيناً مروج تنبسط أمامك حالة
بالأزاهير ، ترسل عليها شمس الأصيل ؛ فكأنها مذهبة الحواشي ...
وهناك تبدو لك مطاعم ومشارب صغيرة تستقبلك في رحاب ،
وإنها لتقوم في ظلل خشبية أنيقة رشيقة ، حولها لواءد ومقاعد
تهدل من فوقها أفنان الشجر ، فلا تملك إلا أن تتخذ مجلسك
وسط هذه الفتنة الحية من الطبيعة المشرقة ، بين ماء يترقق
وخضرة تنضّر ، ثم تهض إلى الظلة لتطلب إلى النادلة الحساء أن
تملا صينيئك بما اشتيت من مأكل ، ثم تحمل الصينية إلى مائدتك
لتطعم هنثاً مريثاً في جو من السذاجة والبدعة ، كله رَوْح
ورينحان ! ...

ولما جئ الليل ، وهمنا أن نرجع أدراجنا إلى الفندق ،

ذين لنا الرفاق ألا نبارح « جورجاردن » قبل أن نزور
« تيفال » ... مدينة الملاهي ، وملعب الكبار والصغار ، أو ما
يسمى : « لونا بارك » ... وما كاد يسمع صغارنا باسمه حتى أرادونا
على الإسراع إلى ذلك المكان الحبيب إلى نفوسهم الغضة ، فوافيناه
متوهج الأضواء ، وانطلق الصغار فيه يتواثبون ويتصايحون في
مراح ... وقضينا هزيبا من الليل في تلك المثابة الصاخبة ،
متنقلين بين أنواع الملاعب ، تنحدر بنا القطارات والمركبات إلى
مغارات الشياطين وتسمو بنا الطائرات وطواحين الهواء إلى
أوج بعيد ...

هكذا فر اليوم كما تفر هائناتُ المُنَى ...

أليست « جورجاردن » حقا « جزيرة الأحلام » ؟ ...

الحضارة... في خطوات ...

ماذا في جعبتك أيها الرائد لمن يقنقون أثرك ، ويستهدون
تخطواتك ؟ ... لقد أمتعهم بالطواف ساعة في « متحف الهواء
الطَّلَق » ، فهل من بقية عندك في « جزيرة جورجاردن » غير
هذا المتحف الممَّع . الطريف ؟

جاءنا جواب الرائد على الفور :

غير بعيد منه متحف آخر ، هو أخوه وصوه ، يسمى « متحف
موردسكا » . ماذا يزهدكم فيه ؟ ماذا ينأى بكم عنه ؟ أظهر ما بين
المنحمن من فارق أن الأول على أديم الأرض في العراء ، والآخر
كسائر المتاحف يضمه بناء ، ولكن لا غُنية لأحدهما عن صاحبه
في العرض والإيضاح . كلاهما يمثل الحضارة القديمة في جملة . وإن
اختلفت بينهما التفاصيل ، وكلاهما لمؤسس فرد ، هو الـ « متناذ
« ارتور هازيلاس » ، فلا غرو أن يتقارب مكانهما من هذه
« الجزيرة الزهراء !

ما أسرع أن تَأْدَى بنا السيرُ إلى بناء ضخم نفخ ؟ تعلوه أبراج ،
كأنه قصر رفيع لسيد غطريف من نبلاء العهود السوالف ، يسلمك
بابه إلى بهو طويل عريض غير مسقف ، على جانبيه تصطف
الحجرات ، ومن فوقه تترأى لك طبقتان من البناء كأنهما سُرُقات ،
وترفرف عليك أعلام السويد في مواضع العهود ، حاليةً برسوم
غريبة لا أشكال شتى من الطير والحيوان والأبواق .

أنت لا تكادُ تُقبل على البهو ، حتى يواجهك تمثال عظيم
لملك يعدونه مؤسساً لدولة السريد الحديثة ، ذلك هو « غستاف
فاز » الذى قضى نحبه ولم يستوف الأربعين من عمره فى القرن
السادس عشر ويروعك ما يتجلى على الملك من مهابة
وجبروت ولا تلبث أن تلوح فى مخيلتك معالم تلك العصور الخالية ،
عصور الزهو بالقُوَّة والقوة ، والتوسل بهما إلى الغلبة والهيمنة
عما تحفل به أساطير الأولين .

نتقلنا بين القاعات والحُجرات نتصفح ما بها من معروضات
فاذا هى تمثيل دقيق للمجتمع السريدى كله ، على اختلاف مراقبه
وتباين فئاته .

هذه وسائل الانتقال برية وبحرية ، ترى بينها المركبات
والزلاّجات والقوارب ، إما هى بأعيانها ، وإما نماذج مصغرة ،
أو لوحات مصورة .

وتلك أدوات الحرب والضرب . على اختلاف الألوان ،
ترى بها كيف يتفنن الإنسان فى الإجهاز على أخيه الإنسان ...
وللازياء مجال فى المتحف رحيب ، فأولئك هم الناس فى أثوابهم
الوطنية على تفاوتهم بين سُرّة وزُرّاع وعُمّال ، من رجاله
ونسائه . كبار وصغار .

وهناك المساكن بما حوت من أثاث ، تريك مرأقد الريف
والحضر ، فترى منها ما هو أشبه بالهوّْدَج ، على مدخله تنسدل
أستار .

وثمّة الحوائط ، عليها نقوشٌ زاهية الألوان منها ما يمثل
أساطير مأثورة ، وقصصاً دينية ، وأحداثاً تاريخية ، وقد نُقلت
ورُكبت كما كانت فى عمورها الغابرة تزين حوائط المنازل ، فهى
تمثيل صادق للتصوير الريفى فى السويد القديمة ، وهى تمثيلٌ صادق
كذلك للحياة فى تلك الأيام . وما أشبهها بما صنّع المصرى القدم

حين صور حياته ومعتقداته وطرائق عيشه على الجدران ، يد
أن المصور الفرعوني كانت له عبقرية فنية وطابع متميز ، وهيات
لهذا التصوير البدائي أن يدانيه .

وفي معرض الآلات الموسيقية تشهد آلتين تماثلان العود
والقانون ، ولا تفرقان عنهما في شيء ، وتشهد كذلك آلة تجمع
بين « البيان » و « الهارب » ، ولعل هذه الآلة هي المرحلة الأولى
للبيان .

راقنتي في مُشحف الحضارة أركان ثلاثة :

ركن عشيرة اللاَّب ، وركن الصيد ، وركن المخبَر :

فأما اللابي فلم يتركوا من أمره شاردة ولا واردة إلا جلوها
له ، هو تارة في زلاجة تحمل متاعه ، كأنها قارب مقفل ، يجرها
الوعَل . وهو حيناً يتخذ من الوعل مطية لأطفاله ، يحملهم على
جنبه في مُهود على غرار القوارب الصغيرة ، وهو طوراً في خيَّمته
وسط الدغل المشتبك . وأخيراً هو في الجبل المقدس يتعبد ، متخذاً
له من الأحجار أرباباً على نحو أوثنان العرب قبل الإسلام .
وأما ركن الصيد ، فهو حافل بالمجسمات والصور ، والتمائيل

البارزة ، والحيوان المَخْبُط ، عامر بالحيائل والمصايد والفِخاخ ،
تتناثر فيه الرماح والسهام ، والبنادق والخناجر ، إلى غير ذلك كله
ما يُظهركَ على فن الصيد في السويد : كيف بدأ ؟ ... وكيف
تطور ؟ ... وكيف كان يتاح للقوم هنالك أن يطاردوا الحيوان
العَيسِيّ ، مثلَ الدبِّ ، وأن يضربوا حوله الحصار ، حتى يصيدوا
منه مقلًا ، أو يستقطوه فيما نصبوا له من شباك وأشراك ...
أما ركنُ المخبز ، فإنك تستشعر منه حرارة الحياة ؛ إذ يذكركَ
بالباعث الأول للكفاح على وجه هذه الأرض ، باعثِ الحصول
على القوت ، على الرغبة .

لقد مثلَ المتحف لعينيك دارَ خباز ريفي ، وكأنك زائر
له تلمس منه لقيَمَات ... وذلك هو يُشهِدكَ كيف كان أسلافه
يتخذون المعجن ، ويوقدون الفرن ، ويُسَوِّون الرُّغْفان .
متحف الحضارة هذا لا يَصْنَعُ عليك بشيء يخطرُ ببالك
أن تعرفه من شئون الناس في تلك الأحقاب : كيف كانوا
يعملون ؟ كيف كانوا يلبون ؟ ... ماذا كان لهم من ثقافات ..
ومعتقدات وعادات ؟ ...

بل إن هذا المُشْحَف ليُشرف بك على جانب من حياة
الأمم المجاورة . تلك التي تربط بينها وبين «السويد» أواصرٌ قوية ،
تكاد تجعلها جميعاً دولة واحدة ، فتشهد معالم من حضارة «النرويج»
و«الدانمرك» و«فنلندا» وغيرها ، مما حول «السويد» من بلاد
وأصقاع ... ولسان حالها يقول : تلك آثارنا تدل علينا ...
وهكذا تصدر عن المتحف ، 'وقد اجتزت حضارةٌ مئات
من السنين في خطوات .

قصر الغرام!...

نحن في مدينة « أوستكلم » ، تلك المدينة العامرة بالحُصرة ،
ومن ثمّ أطلقوا عليها ذلك الاسم الذي يترجم عن ميزتها
الواضحة ، ومعناه : « جزيرة الشجر » ...

ولكنّ أهل المدينة لا يقنعون بميا يرحون فيه ضلالها
من نعيم ، فالنزهة مُثنية النفس الملول من كل شيء ، والرحلة سبيل
هذه النفس إلى التشوّف ، إلى التعرف ، إلى التجديد ! ...

هذا يوم الدعة والترويح يوم « الأحد » ، فما برقَ الصبح
حتى هجرَ المدينة أهلؤها من رجال ونساء وأطفال ، وقد اتخذوا
زِيّ النزهة والرحلة . ومضوا إلى مرفأ البواخر والقوارب
يركبونها طلباً للمتعة الانتقال ! ...

واختَرنا سفينةً رشيقة ، فدخلناها بسلام ، قاصدين الجزيرة
المُسَمّاة « جزيرة الملكة » .

اشتهرت هذه الجزيرة بقصر قديم كان يقضى فيه ملوك

«السويد» فترة الصيف ، وقد تُوفى فيه الملك المعمر
«جوستاف» . أما الملك القائم الآن فقد ازُورَ عنه ، ولعله
حُاق بما يخلعه عليه القدم من جهامة وعبوس ، وبما يعوزه
من مقتضيات الحياة العصرية الحديثة ، فاستبدل به مسكنا جديدا
في بقعة أخرى يوانيه بهذه المقتَضَيَات .

سار بنا المركب البخارى ، يشق الخُلجان ، وصافح وجهها
نسيمُ البحر المنعش ، يبعث في عيوننا نُشوةَ التطلع ،
فلاحت لنا عن اليمين دار حمراء شيدت على الطُّراز البندقي ،
تصطف تحتها قبوات ، وتقوم فوقها أبراج ، وتبدو عليها تماثيل
مذهبة تلمع في وهج الشمس ، ومن حولها حديقةٌ تتناثر
فيها مقاعد للناس .

تلك هى «دار البلدية» ، ما أشبهها في «أستكلم» بدار
النيابة في «لندن» ، فإن الدارين تماثلان في الفخامة والعِظَم
وفي مواجهة البحر .

وتراءت لنا على مدّ الشاطئ منازلُ المدينة ، رائعة التناسق ،
شُرُفاتها تتحلّى بالأزاهر ، وتنبسط عليها مظلات زاهية الألوان ،

وأخذت عبوتنا جسرا بعيد المدى ، هو إحدى فرائد
« أستكلم » ، وما هي إلا أن اكتفت الشاطئ غابات
وصخور ، كأننا نستقبل منظرا من الريف ، وبدت لنا الدور من
بين الخنايل تحتل النظر إلى البحر ، كأنها عرائس ترفل
في الأفواف على استحياء .

وبينا نحن نستمتع برأى الزوارق متخطرة على الماء ،
ومن حولها طلاب الاستحمام يُعابثون الأمواج ، إذ مرت
بنا في السفينة عاملة التذاكر تقتضينا أجر الركوب ، وهى
فتاة لمناحة المحييا ، فى أدب جم ، فوجدتني على غير وعى أقرب
مكان القيادة من السفينة ، خشية أن نكون قد وقعنا تحت
إمرة الجنس اللطيف ، كما كان شأننا فى الرحلة إلى « جزيرة
الأحلام » منذ قليل ، ولكنى ألفت القيادة قد أسلمت إلى رجل
رزين السمى وقور ، فتاب إلى نفسى اطمئنان ، وعرفت أن
إمرة الجنس اللطيف لا تمتد إلى قيادة مثل هذا المركب الكبير ،
وإلا كانت الكارثة أو كادت ..

وتوالت علينا الجسور ، وتفرعت أمامنا مسارب الماء ،

وتعددت حبالنا الجزر الصغيرة معشوشبة تتعاقب فيها أدواح وتلتق خماثل... وبجانب كل جزيرة زورق، كأنما ضاق بوحده وظول ارتقابه، ففلق في مكانه يترجرج... وأنت لو أوتيت حدة البصر ففتشت في أنحاء هذه الجزر، لتصيدت عينك أصحاب هذه الزوارق أشباحاً أشباه عراة، مستلقين لضوء الشمس، أو مكتسين بظل الشجر، أو مرحين على الحافات يتقافزون إلى الماء...!

هذه جزيرة تتوافر فيها حياة الفطرة والطلاقة. ولوسميتها جزيرة «روبن كروزو»، لما أبعدت. يبد أن جزيرته كانت تحويه فرداً مستوحشاً لا ألف له ولا أنيس. أما هذه الجزر فالناس فيها يتلاقون مؤتلفين مؤتسجين، زوجين زوجين؛ من آدم وحواء.

لبثنا في هذه الزهرة البحرية ساعة. ثم أفضى بنا المطاف إلى جزيرة المسكة، التي يقوم فيها القصر العتيق.

وغادرنا السفينة إلى أرض الجزيرة. وسرعان ما يممنا ذلك القصر المباح لمن ينشئه المتعة والاسترواح. فإذا نحن نجتاز إلى

حديقة فياحة تبرّج فيها الزهور أيما تبرّج . وتتجلى في أحواض
نُسِقت أبعد تنسيق . وعلى الجانبين طريقان اصطفت عليهما
أشجار باسقات . وفي وسط الحديقة فوّارة زُينت بتماثيل ينساب
الماء من أفواها على أوضاع خلافة . وبين يدي القصر مُستشرف
فسيح يكسوه الحصى اللامع ، وأينما أرسلت الطّرف وجدت
ضروب التماثيل من وحي الفن الجميل .

ليس هذا القصر وحديقه بدّعا في فكرته . طرازه يماثل
طراز قصرين ، أحدهما : قصر « فرسايل » مصيف « آل
بوربون » في ضواحي « باريس » ... والآخر ، قصر
« شونبرون » مصيف « آل هابسبورج » في ضواحي « فينا » ...
والناس يحدّثون إلى هذه القصور سياحا وغير سياح ، لكي
يتذوقوا فيها من روعة وفتنة . ولكي يتعرفوا معابد الجمال
والروحانية والصفاء ، ملتبسين فيها ساعة من سلوة وإيناس .

نفذنا إلى القصر ، فإذا هو حقا من طراز قديم ، وإذا هو
حقا جهم عبوس ، ولكنه عريق الجوهر ، ثمين المخبر ...
الآباء مترامية الأطراف ، والحجر بالغة السعة ، في كل خجرة

هذه نوافذ نفيسة ، والحوائط مغطاة بالسجادات ذات الرسوم والنقوش ، أو محلاة بالواح فنية تمثل بعض الملوك والأمراء ، وحجالي الصيد ، وأحداث التاريخ ، ومشاهد الحياة ...

وقفت لحظات أمام لوحين ممتازين ، يملأ كل منهما حائطا جاكلا ... أما اللوح الأول فإنه يريك الجيش العثماني عن كسب من أسوار « فينا » ، وقد تجلى الجند في حائل مزركشة ، وعماهم مكورة ، وبدت على سيحهم المغولية سمات الغلبة والتأمر ...

وأما اللوح الآخر فإنه يريك شخصية عثمانية في بزة حمراء ، على جمال شديد الأسر ، ومن ورائه أشباح إبل عليها الركبان ... تلك صورة « قافلة » ... قافلة شرقية تخرج من الصحراء ...

وفي مختلف حجرات القصر وأرجائه أفانين من النحف والألطف ، ولا تكاد تخلو حجرة من ساعة تدق ، كأن كل شبر في القصر يلتقي على سمعك نداء الزمن ، وإن الاثنا ليهولك بما فيه من ضخامة وتعقيد ، وإن اثنا لنتحاصرُك من كل جانب ،

حتى لتحسبن الزوار من حولك تماثيل ، أو تحسبن هذه التماثيل
بعض الزوار

وأفضينا إلى حجرة فيـها سرير ، هي مخدع لا ريب . . .
ولكن أى سرير هذا ؟ . . إنه لصغير ، فكيف كان يتمدد فيه
الملك العملاق «جوستاف» ؟ أترأه كان مرقدًا له وهو فى المهد
صبي ؟ . . على أن السرير محوط بالآستار الغلاظ ، فى ركن
من الحجرة معتم ، وأمامه قطع الآثاث كثيفة موحشة ، فكيف
يتاح لامرئ أن يهنا بنوم ليلة على هذا السرير المحتبس ؟ الكأنى
بالأشباح المرهوبة رابضة تحته ، وبين أعظيته وخلف أستاره .
حتى إذا جن الليل انبعثت من مكانها عابثة تنشر الرعب والفرع .
هذه الجزيرة اسمها «جزيرة الملكة» ، فإن الملكة «كرستين» (١)

١ — أراد أبوها أن ينشئها على صفات الفرسان وشجعان الرجال ، ولكن
المرأة هى المرأة ، فلم تلت بعد وفاة أبيها أن ظهرت فيها غرائرها الأصلية على نحو
ما ستقرأ فى الكتاب فيما بعد ، وذلك نتيجة الشطط والتشدد فى التربية :
ومكاف الأيام ضد طاعها مطلب فى الماء جذوة نار :
وتحن ظالم بالفضيلة ، وتمسك بها على ألا تغالى وتنشط إلى حد يدعو من نريه
إلى التردد علينا وانتهاز القرص لعب من مهر الرذيلة إذا ما سحت له الفرصة ؛ فلنأخذ
أبناءنا بالفضيلة فى رفق ولين وهودة ، بحيث نجيب لإيهم الفضائل فألفوها
(من طبع خاطر ، وقس راضية . . .)

اختارتها موقعا تبني فيه ذلك القصر المنيف ! ...

ولمّا اختارت هذه الجزيرة الحالية بمفاتيح الطبيعة ؛ لكي
يكون قصرها فيها مسرحا للصبابة والحب ، فأحسّت الاختيار
كل الإحسان ...

خاضت تلك الملكة الفئانة مغامراتٍ عنيفةً في ميدان الهوى
حتى طار لها صيت ، ولم يعد أمرُها خافيا على أحد ! ...
تفتحت عبقريتها عن ذلك القصر الشعري ، ليلائم الحسو
الغرامي ، فقصّت فيه لُبّاتها هاتئة بحياة أشبه بالأحلام ؛ وإن
روّاد القصر ليطوفون به اليوم يستنشون منه عطر الحب ،
ويلبسون فيه أطياف الهيام ! ...

أكانت حياة هذه الملكة سخرية لاذعة ممن يضعون قواعد
الترية ، ويرسّمون أصول تنشئة الأبناء ؟ أم كانت درسا حيا
حاسما لأولئك الذين يفتقرون إلى اكتناه خصائص المرأة
وخصائص الرجل ، والإيمان بما بينهما من جلائل الفروق ؟ ...
أراد أبوها أن يُنشئها تنشئة رجولية طابعا بها الصرامة
والجد ، فوكل بها من يدرّبها على مزاوله الصبد ، وبرّوضها على

ركوب الخيل ، ولبسها زيَّ الرجال ، وما زال بها يبيت فيها روح
الرجولة ، حتى تصبح لحكم البلاد أصلح ، وعليه أقدر ، فكانت
حباتها أقرب ما تكون إلى حياة جندي في ثكنة ، لا تملك من
أمر نفسها إلا ما تؤخذ به ، وما تُراد عليه ...

وهكذا أسلمتها تلك الحياة التي جافت مارُ كُتب فيها من
غريزة قاهرة ، وما بيعت عليه من طبع غلاب ، إلى عكس
ما نُشئت عليه واحتيرت له . وكان الرجوع الطبيعي لهذا
الشذوذ والشطط في التشئة أن انتهزت الملكة أولَ فرصة لكي
تخلص ، لكي تنطلق ، لكي تنفجر ! ...

هذا الآدمي المغلوب على أمره ، ليس إلا أسير غرائزه
وطائعه ، فهي تتحكم فيه ، وهي تملئ عليه ، وما كانت تلك الملكة
المرجلة إلا امرأة ، وما كان تعليمها وتدريبها على حياة الرجولة
إلا محاولة فاشلة لا تقتل الغريزة الكامنة ، ولا تُحيل الطبع
الأصيل !

لقد استبقت الملكة الرجل يوماً فإذا هي تحس في دَخلتها
ثورة الأنثى قصارى ههما أن تظفر بإطراء ما وهت من

فتنة الأنوثة ومسحة الجمال وغاية منها أن تكون كحُتْها مُسْركا
للرجل ، إذا مدت له حباثتها لم يملك منها الفِكَاك ...
مالها ولهذه البيبة الملوكة التي تضيفها عليها الرجولة الكاذبة ؟
ماذا يُجِدُ عليها أن يتسنى لها مُقْياد الأعناق ، دون قِياد
القلوب ؟

هي امرأة ، قبل أن تكون ملكة حاكمة ...
لا غرو أن تثار ثائرتها حين رأت الرجال ينظرون إليها
نظرتهم إلى الرجال ، ولا غرو أن تنطلق بواعيتها الباطنة ، لكي
تثت لنفسها ولمن حولها أنها ما برحت امرأة لم تفقد حصائص
الأنوثة ، وأنها مستطبعة " أن تجتذب إليها العواطف
والأهواء ...

أدبرنا عن القصر تشيعُنا ذكريات تلك الملكة التي استعلت
بحصائص الأنوثة على صرامة الرجولة ... وطاب لنا أن نجول
في الجزيرة جولةً نرتاد فيها الغابة ، فألفيناها تتناثر فيها ظلاّت
رشيقة تشبه ظلاّت الاستحمام على الشاطئ ، والناس فيها
متخفون من ثيابهم يتصدون للشمس والهواء ، فيهم يستمرنون

هنا حياة الغابة بعض وقت كما يستمرنون في وقت آخر حياة
الشاطئ ، ولكلّ لذة ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ...

وعدنا من الجزيرة في سيارة حافلة ، لها ستة أبواب ، بجوار
أحدها عامل التذاكر في مجلس حبيس تحيط به القضبان لا يرحه ،
الراكب يره لينقذه أجر الركوب ، أما هو فإنه مقيم يتحكم
في أبواب الحافلة فتحة وإغلاقاً ، لا يقتضيه ذلك إلا أن يغمزها
في متناول يده ، كلما وقفت الحافلة أو همت بالمسير ...

واسترعى انتباهي في طريق العودة من هذه الضاحية مجموعة
من المنازل أُقيمت من خشب ، لتفريج أزمة المساكن ، كأنها
قرية عصرية من قرى المستقبل ، وقد ركبت هذه المنازل من
أجزاء قابلة للقل ، إذا شئت فككت أجزائها في بضعة أيام ،
كشأنك حين تقل الإثاث من مكان إلى مكان

ورجعنا إلى المئوى ، نحمد ليوم « الأحد » ما هيأ لنا من
طوفة ممتعة بجزيرة الملكة ، أو بالأحرى : قصر الغرام ...

جزيرة الدفاع!...

هلم إلى جزيرة تبعد عن « استكهلم » مسيرة ساعة ... هي
جزيرة « فاكسهولم » ... الخبراء من أهل « السويد » يتواصفون
جمالها ، فما بالنا لانزورها ، وما رأيكم ؟ سمع ! ...
خف بنا إليها مركب بحري رشيق ، يعبر الخلجان ، ويمر على
الحزر ، ونحن نهم بأنظارنا في خضرة ناضرة .
ما كردنا نحمل الجزيرة المرموقة ، حتى شمخ أمام أعيننا عن
اليمين بناء على لون الرماد ، كأنما هو سجن كبير .
ما لهذه الجزيرة المرححة وللسجن العبوس ؟
بل ما لنا نحن ولهذا البناء الاقيم الدميم ؟
نحو نأنحوه ، نستبين أمره ، فإذا هوشر مما توقعنا أن يكون ! ...
إنه قلعة . دخولها مخطور .
خيرا فعل الذين ضربوا عليها الحصار ، ومنعوا أن تراز ،
فما نبغى أن نعرف ما وراء تلك الأسوار من أسرار ، وما بنا .

من حاجة إلى ما يثير الخاطرَ من معالم الضرب والحرب ، فلو أنهم أباحوا زيارة هذه القلعة الشوهاة ، لكنا فيها أزهد الزاهدين !
جنى على تلك الجزيرة موقعها الحربى بالنسبة للعاصمة ، فقد كانت فيما سلف من عهودها مثابةً لمن يصطادون فى البحر ؛
واتضح من بعد لقادة الجيش أن الجزيرة مطمح أنصار الغزاة فى الحرب العامة ؛ متى وقعت فى قبضتهم نفذوا منها إلى العاصمة فى يسر ، ومن ثم اضطرتُّ حُماة البلاد من قادة الجيش أن يتخذوا من الجزيرة قاعدةً تعسكر فيها الفصائل ... فلما وضعت الحربُ أوزارها جلتُ تلك الفصائلُ عن مواقعها ، وخلقت وراءها تلك القلعة الشاخنة ، أشهر بناء فى الجزيرة ، لانفع منها إلا أن يكون للتذكار ...

وقفنا هنالك نستقبلُ الماء ، ونجبل فيما حولنا الأنظار ...

يا لله لتلك الفتنة المائتة الخضراء ! ...

الموج يترقرق فى رَعَاوة وهُدوء ، تسبح على صفحته
سميات مضمخة بقطر الحشائش البرية ، والجزر منها ما يترأى
دانى المنال ، ومنها ما تلمحه على البعد يتوارى ، كأنما هو ضنينٌ

محسنه على من يهفو إلى اجتلائه ، أو كأنما يصدّه الحياء أن تساله
العيون ،

ما أنصفوك أيّتها الجزيرة الساحرة ؛ إذ أرادوك على أن
تكوني ميدان قتال ونزال ، فلقد أبدعك الله مراحا للطمأنينة ،
وكعبة للأمان .

إن العدو الذي يتلظى فؤاده من الأحقاد ، لا يكاد يستشرف
مفاتيح الملائكية ، ويستظل بما أفاء الله عليك من سماحة ولطف
حتى يخر ساجدا لك ، ملقيا سلاحه بين يديك ، مؤمنا بجوهر
الإنسانية من محبة والفة وسلام ! ...

نحننا أقدامنا نجوب البلدة ، وأى بلدة ؟ ... لاهى ريف
كالريف المعمود ولاهى مدينة بالمعنى المعروف . هذه قرية مدنية ،
أو مدينة ريفية ، فيها من خصائص القرى سداجة وطلاقة وجمال
طبيعى وادع ، وفيها من خصائص المدن نظافة وتنسيق ونظام .
يشق البلدة طريق ظليل ، هو طريق المرور والنزهة ، لا تكاد
تصادف فيه مركبة واحدة تثير الغبار أو تبعث الضوضاء ، إذا
أوغلت فيه رأيت المقاعد المريحة تناديك أن تجلس ؛ لكى

فستمنع بمنظر المروج الخضر ، وهى ترف إليك نفحات الأريج .
وحين تستوفى منها حظك ، تنابع خطوك إلى مشارف
البلدة ، تعلى تلك الروابي التى كانت تُنصب عليها المدافع ، وتروك
من فرقها خلافة البحر المنبسط أمامك ، وترى الجزر المتناوبة
وهى تبعث إليك ابتسامات خفصرة ؛ كأنهن مستحيمات
خرجن من الماء نديبات ، عليهن نضرة ورؤاء .

وتستهويك فى أرجاء المدينة تلك الحوانيت اللطاف التى
تعرض عليك كل شيء ، فتشتري ما شئت من بطاقات وصور
وطارف ، مسترخيا فى هذا الجو من الأُنس والاسترواح
ما تبدل من ثمن .

وتحمل ساعة البطون ، ساعة الغنداء ... فتقصد فندقا ريفيا
أنيقا ذا طبقتين ...

هنالك تدخل بهو الطعام ، فترمقك مائدة فسيحة تنوسط
البهو ، عليها عشرات الأصناف من لحم وجبن وسمك ، إلى
مخللات و « سلطات » ، فتأخذ صحنك لتختار فيه ما تروقك
من هذه الأصناف ، وتعود إلى منضدتك لتطعم ، وإذا أنت

تعلم أن هذا كله هو الصحن الأول في قائمه الغداء ، صحن
المشهيّبات ، فتسأل نفسك : ماذا بعد هذه الأصاف التي يتمثل
فيها ما تطهوه مطابخُ العالم أجمع ؟

حقاً إن السويديين قوم ذوّاقون ، يقيمون للطعام وزناً أى
وزن ، وبخاصة وجبة الغداء ، فلا يصيرون طعامهم كما اتفق ،
ولكن يفتنون في صنعه وفي تطهوه ما وسعهم التفنن ، والصحن
الشائع عندهم هو صحن المشهيّبات ، أو الشطائر المذوّقة : فهذه من
تلك ، وقوام ذلك الصحن ضروبُ السمك ، فالسويدي يفتتح
به طعامه لابد ، وسواء عليه ما يقدم له من بعد . والشطائر عنده
شرائح عارية ، تبرقش بألوان من الإدام ، كأنها وشى أو تطريز
وتفرغ من الغداء ، وتخلد إلى الراحة بعض وقت ، ثم تصغى
إلى الأحاديث من يرافقونك ، فتسمعنهم يتحدثون عن مدافن
النبلة .

ماذا فى المدافن خليقُ بأن يرى ؟ ..

يبد أن المرء حين يسمع حديث المدافن لا يستطيع أن يرد
نفسه عن التأمل والذكرى

إنها مواطن للزيارة محببة ، وهي لكل الناس في كل مكان ،
عما أقرب أنساب الأحياء - حينما كانوا - إلى الموتى في أي
أحداث يرقدون .

هذه مدافنُ الإنسان المجهول ، ما أشبهها بقبر الجندي
المجهول ، يرى فيها الحيُّ أطياف موتاه ، قهرهف مشاعره ،
ويستيقظ بين جوانحه وجدٌ وحنين :

هيا إلى المدافن ، نقف فيها خاشعين وقفة التذكار ...
هيا إليها ونحن في أطيب الساعات ، نستمرى النشوة ،
ونحظى بالمتعة ، لكي نشرك في نشوتنا وممتعنا من فقدنا من
الأحباب الأعراء .

ذهبنا ناشطين نخرج إلى مدافن البلدة ... فلم نجد ثمة - إلا
يساطا من خضرة ناضرة ، تقوم خلالها أنصاب من الرخام ،
لا كلفة فيها ولا صنعة ، ولكنها لا تخلو من رشاقة وجمال .
طوبى لكم أيها الراقدون في أحضان هذه الطبيعة الزاهية ،
في جنة الأرض ! ...

وعليكم من السماء رحمتا ...

فصحبة الأزمهار!...

نحن في السويد ، كلما خرجنا إلى ضاحية أو جزيرة ، حمدا
معها الصبغة ، واستشعرنا فيها الأنس والمتعة ، فلا غرور أن
تتقل بين ضاحية وجزيرة ، وبين جزيرة وصاحية ، كمن ينتشى
بالطيب من الرحيق ، يستسلم للكأس بعد الكأس ، وهو محبوبور
التمس طروب .

أضافتنا في رحابها يوما بلدة الشاطيء . سالشوبادن ،
وقد عرفنا إليها في القطار الكهربائي طريقا زائرا بالبساتين
والغابات ، منحوطا بالحيرات الآهلة بالجرور ، تدو فيه الدور
الرشيقة كأنما هي عوامات .

هذه البلدة مصيف وادع ، طيب الهواء ، لازحة تشوب
صفاءه ، أكثر ما فيه : حمامات ومراكب للنزهة ، وتماثيل عارية
تقام على حفاف الماء ، أو تنصب على الهضاب ، في أوضاع
جميلة تشبع البهجة والانتعاش .

وفي أوبتنا مسن البلدة ، ارتقينا البرج المسمى . مصعد

كاتارينا ، فأفضت بنا قمة البرج إلى جسر معلق تناثرت فيه
المطاعم والأندية يحملها الجسر على ظهره ، أو يدلى بها تحته ، فإذا
احتواك مقعدك على أحدها خيل إليك أنك في طائرة ذهبت عنها
المحركات ، ووقفت بين السماء والأرض ، تشرف بك على
البلدة ، وتبسط لعينيك منظرها الخلاب .

ويوما ساقنا الأدلاء إلى ضاحية « هاجانا » : فكان أول
ما استقلنا منها مبنى عصرى الطراز ؛ تدخله فإذا أنت في
حديقة تطل عليها الشرفات سافرة أو محجبة ، وثمة
عرائش صفت تحتها المناضد في الهواء الطلق ، وثمة مسابيل
ماء كأنها مرايا مجلوة تنعكس عليها ألوان الورود
والرياحين ، وثمة جدار تطل منه تماثيل كهيئة رموس أسود
صغار ، تنشق من أفواهها شآبيب الماء في حوض أنيق .

وتخطو قليلاً في هذا المبنى ، فإذا أنت تمشى على أرض
مر الصخر الأملس ، تنبت من بين أثنائه خضرة باسمة ...
وتتابع سيرك ، فإذا أنت على مَرَج يتلاعب فيه أفياء الشجر ،
كأنها أطفال ترح في كنف الأميات .

أفى مَعرَض أنت للزهر والشجر ؟ ...

بل أنت فى مطعَم ، وهسنا مبناه ، وإنه ليدعوك فى ذلك
 المِهْرَجَان من الخُضرة والماء أن تأخذ قسطك من طعام
 وشراب ، قبل أن تضربَ فى أرجاء المصيف الجميل .
 قطعنا أشواطاً فى هذه الضاحية ، ونحن نجتازُ غابتها الشاسعة ،
 بما فيها من أشجارٍ باسقة ، وربواتٍ عالية ، ومهابطٍ غائرة ،
 حتى لقد خشينا أن نَصل فى مسالكها الطريق
 وعدلنا عن الغابة المشتبكة ، إلى بسيط من الخُضرة يعمرُه
 الناس قُرادى وزَرَافات ، وهم يفتشون فيه أشعةَ الشمس ،
 متخففين من الثياب ، بل أشباهَ عراة ، وبين أيديهم طعامهم
 وشرابهم يتناولونه على مائدة سندسية من الحشائش الزاكية ،
 نراهم حُرّاصاً على أن يستقبلوا الشمسَ أو يستدبروها لتلغحَ
 وجوههم أو ظهورهم ساعات ، فتسائل نفسك : أَلعلمهم يختزنون
 تحت جلودهم ما تبعث الشمسُ الساطعةُ من حرارة ودفء ،
 لكى يعينهم حين تَغيم فوقهم السماء ، وتعدو عليهم عاديةُ البرد
 فى الشتاء ؟ ...

في مديد هذه الروضة الفسيحة التي يقصرُ عنها الطرف
تعرضك دار يسكنها نفر من أعضاء الأسرة المالكة ، ساذجةُ
المظهر، يضاء الطلعة كأنها عذراء تشف عن طوية نقية . يحدق
بها سورٌ من السلك الشائك، تستينُ حدودُها به ، فلا هي نعدوه
ولا هي يعدو عليها أحد .

وربما اعترضتك في مسيرك أبنية آخر ، طريفة الشكل، منها
مآثره على هيئة الخيمة المضروبة ، ومنها ما هو كالظلة
المكشوفة ، وقد كانت هذه الأبنية للوك القدامى . أما كرسى
راحة ومواطن استجمام ، فأصبحت اليوم يرتادها الجمهور في
سراج ورواح .

وما كاد الأدلاء يُديرون بيننا حديث المدافن في هذه الضاحية
حتى كنا إليها سراع الخطا ، لا نبالي ما تثيره ذكرى الموت من
وحشةٍ وانقباض ، ولا سيما في هذه المثابة التي تتوهج فيها
مباهج الحياة .

لقد استوفت المدافن حظها من هذا الروض العطر ، إذ
أقيمت في رحاب فساح ، رائعة التنسيق ، تبسط الأشجار عليها

وارفَ الظلال ، وتسخو لها بألوان الأزاهير ...
نحن ، أهل الشرق ، نخطّ مدافنا في مكان قفر ، فإذا ابتغينا
زيارتها كان علينا أن نحمل إليها الهدايا من طاقات الریحمان ، فأما
مدافنُ هذه الضاحية فإنها في غُنية عن ریحانٍ تحمله ، جذيرةٌ أن
تُسهِدِي هِي إِلَيْكَ ما تزخرُ به من أزهار نواضر .
تلك هي الضرائعُ نامية عليها الخضرة ، تتدل من فوقها الورود
الندية ، فنجمع إلى الهيبة والجلال لُطفا ومؤانسة .
هنا تخف تباريحُ الأحزان وتجف الدموع في المحاجر ،
ويستشعر القلب الليفُ بردَ الرضا والسُلوَان .
في هذا الإشراق البهي ، والنضرة الباسمة ، تغدو رهبة الموت
أُلْفَةً ، ووحشته سَكِينَةً ، وصمتهُ مناجاةٌ ... !
ذلك ما نحسه نحنُ الأحياء الذين يرتقبون مصيرهم المحتوم ،
حين يقفون بتلك الروضة الحالِية التي تُحوِّمُ فيها أرواحُ
الذاهبين .
فليت شعري أيتها الأرواح الهائمة ، أيتها الأجساد الهامدة ،
أيتها الموتي : أهذا ما تحسون ؟ أم أنتم عن حياتنا غافلون ؟ ... !

خطوات... في عاصمة السويد..

« الشارع ، فى مدينه « استكهلم » يبيح لك أن تجتلى صورة
صححة لآمة « السويد » البقطة الباسمة المفتحة للحياة ... فهى
أمامك ، على قارعة الطريق ، بحضارتها التى تسرى فيها روح
عصرية منحددة ، وإن بدت عليها مَسحة تقليدية مَهِيبة . والآمة
السويدية فى حقيقة أمرها بين أُرستقراطية هادئة غير مسرقة .
وديمقراطية سَمُحَة غير منطرقة .

لا تطلب « الشارع » فى الليل ، تحدوك الرغبة فى لهو ومتاع .
فا تغيبك المدينة فيما ترغبُ كبيرَ عاء ... ليست هذه مدينة
ليل ، تمهل بأفانين اللهو الرخيص ، والمتاع الطليق ؛ ولكنها فى
الأغلب مدينة حد وتوقُر ، وما أعنى أنها سَحلاء من الفن ،
فتصيبها من الفن الرفيع غيرُ منقوص ، بها مواسمُ للمسرحيات
الغنائية . وغير الغنائية ، وفيها غير دور التمثيل الأصيلة دارُ للتمثيل
مقصورة على عرض الروايات الانجليزية .

ولقد شهدت على جُدران أحد المسارح إعلانات ذات أسلوب رمزي، على نحو مخفّف، تذهب مذهب الفن فوق الواقعي « السورالية »... فيها ألوان ساطعة، وهنالك مكعبات ومربعات، وثمة رؤوس بلا أجسام، أو أجسام بلا رؤوس... ومن مجموع هذه الأمشاج يتولد إحياء لطيف بموضوع المسرحية المعروضة يلفت إليه الأنظار !

إذا أوغلت في « الشارع »، والوقت ظهر، صادفك حمام للسباحة، ماؤه ضخمضّاح يبعث بالاطفال... هو لهم خاصة، به يسبحون ويمرحون، ومعهم زوّارق تحملهم على الماء تحت ظلال الشجر، لا يخشون من شيء.

وأنت ترى هؤلاء الاطفال عراة في حمام السباحة، بنين ونات، حتى إنك ترى في جانب من الحمام تمثالا لشاب ممسك بيد فتاة يريد بها على أن تستحم، وكلاهما عار تمام العري، لا يستر جسده سائر، طال أو قصر.

والعري في هذه المدينة من الظواهر التي تسودها. فهو فيها لا ينافي الفضيلة، بل لعله عند أهلها من مقومات الفضيلة...

فالتمايلُ الفنية في أرجاء المدينة كلها تمايلٌ عارية ، يعوزها ما نعرفنا
على أن نسميه - نحن أبناء الشرق الوقور - النصوْن والاحتشام !
جفا لكل بلد ما يلائمه من الأوضاع والتقاليد ، وربما كان
العرى لا يلائم جوَّ الشرق وخصائصه ... ولكن هذه
التجارب التي تمارسها الأمم في رحاب الأرض مجدية أن
تعتنا على الحدِّ مما نحن فيه من حِشمة مصنوعة ، ومن تستر
كثيف . فالمبالغة في التحشم والتستر سبيل إلى الكبت ، مضرٌّ
للأخيلة والأحلام . وهذا الكبت والتخيُّل حربٌ على
المراهقة ، وعون على الانفجار . وعسى أن يكون تبسيط
الحقائق الجنسية للأطفال ، وتعويدهم الاختلاط في باكورة
العمر ، مما يباعد بينهم وبين الخيال الجنسي القاهر ، والكبت
النفسي المرير .

ينصرف الأطفال عن حمائم الخاص بهم ساعة الأصيل ،
فإذا الشيوخ من الرجال والنساء يتوافدون عليه ، لا لبسحوا
في مائه ، ولكن ليأخذوا مجالسهم على الحافات ، مستمتعين في
هذه الساعة الأنيسة بخطرآت النسيم ! .

ضدان من الأعمار يتعاقبان على هذا المستحِم :
الطفولة ، والشيخوخة ... فهل هما ضدان يجتمعان ؟ أو هما
في العقلية والميزاج شبيهان ؟ ... أترى الشيوخ هنا في
مستحِم الأطفال يستعيدون بالذكرى ما كان لهم في طفولتهم من
أحلام ، وما نعيمُوا به في الصِّبا من مِراح ؟
وهناك مستحِم آخر للأطفال في أحد الميادين ، مُحْدَق
به الأشجار ، وتوسطه فَوَّارةٌ يتناثر منها الماء يمّنة ويسرة ،
فتبرد به الأطفال وهم عُراة .

وعلى ربوة فسيحة في أقصى « الشارع » يسمو بصرك إلى
متنزه فائن كأنه معلق ، فتصعد إليه ، فإذا هو حمام سباحة للكبار ،
تحمية أستار الشجر من فضول النّظرات ، وتكفل لروّاده
ما يحبون من خلّوة وصفاء ... وعلى قيد خطوات من الربوة ،
تقوم كنيسة أثرية يبدو أنها من كنائس العصور الوسطى ، وقد
تعجب لهذا الحمام المصري ، يأبى إلا أن يجاور تلك الكنيسة
العتيقة . ولكن هذا هو طابعُ «السويد» : القديم للجديد قَرين ،
ولكل مكانته ... ولا ضير على المعبد عندهم أن يشرف على حمام

السباحة ، لعله يرده عن الغيبى ، ويجنبه النزوات ! ...
 ولك أن تسأل: ماسر هذه الحمامات السباحية للكبار والصغار ،
 يتوغل في قلب مدينة مائية على شواطئها حمامات للسباحة ؟ ...
 بولست تجد من جواب إلا أن القوم هنالك يعملون على توفير
 الراحة والمتعة للأهلين في كل مكان ، لا يحشمونهم من كد
 ولا رهق .

وكما ترؤعك في هذه المدينة كثرة حمامات السباحة ،
 ترؤعك وفرة الحدائق العامة ، فهي تغازلك حيثما سرت ، في
 كل شارع ، وفي كل ميدان ... حتى إنك إذا عدلت إلى مطعم
 أو مشرب ألقيت نفسك فيه مشرفا على حديقة ، وأمامك بركة
 يسبح فيها البط ، وقد حملت إليك الأنسام روائع الأنعام .

و « الشارع » في المدينة عامر بالخوانيت كبيرة وصغيرة ،
 فيها من السِّلَع ما تنتجه « السويد » وما يجلب إليها من سائر
 البقاع ، فلا يعيبك أن تجد شيئا تطلبه وإن عزّ ... وما أصدق
 من سمى « أستاذكم » : مدينة نيويورك الصغيرة ، أو : بنت
 نيويورك ... وهي على إعجابي بالأمم العظمى ، وتقديرى لمنزلتها

العالمية المرموقة ، أراى بالابنة الرشيدة أشدَّ شغفا ، يروقنى منها
هدوء تسكنُ إليه الأعصاب ، ويفتننى فيها ذلك التناسقُ العجيبُ
فى ظواهر العمران . لكل شارع نظام مرسوم ، وطرارز أبنية
موحَّدة ، ولكل بناء ظُلُلات للشرفات ، ينم اختيار ألوانها عن
ذوق فنى مضى ، وإحساس بالجمال رقيق .

وإذا ابتغيت فى هذه المدينة شراءَ شيءٍ من الخبز ، وجدت
الناس فيه عددهم كثير ، ولكن زحامهم لا تضيق به النفس ،
فلا أنت مضطر أن تدفع الناس بمكبيك ، ولا أنت تتأذى
من يدفعك ، ولا أنت متبرم بالوقوف فى طُف تنتظر أن
تقدم ، ولا أنت طامع فى أن يحايك البائع بتعجيل مطلبك ،
ولا أنت مستنكر أن يفضل عليك غيرك فيؤثره بالتعجيل ...
هنالك بجانب الباب تذاكر مرقومة ، تأخذ إحداها حال
وصولك ، وترقب أن ينادى البائع رقم تذكرتك ، فتسرع إليه
لتشتري ما تريد .

والمطاعم فى المدينة تجرى على النظام الأمريكى
القائل : اخدم نفسك نفسك ... دونك الصوانى

والصحون وما إليها من عُدَّة المائدة، فاحمل منها ما شئت ، وانتق
ما اشتيت ، واجلس حيث طاب لك أن تجلس ...

وما أكثر ما في المدينة من مطاعم ومشارب ، ولا سيما
مشارب الشاي والقهوة ، ففى محلات للأكل الخفيف ، تقدم
فيها أصناف الكعك ، ومنوعات الشطائر والفطائر .

وتستطيع أن تضيف إلى المطاعم متاجر الفاكهة ، فالسويدي
إذا أحس الجوع في بعض طريقه ، وضاق به وقته أن يدخل
المطعم . أو لم يجد في نفسه شهوة إلى ما يحتويه المطعم من مأكل ،
فإنه لا يستكف أن يقصد بائع الفاكهة ، فيشتري موزة
أو تفاحة أو كمثرأة ، ولا يلبث أن يقضمها في الطريق على
أعين الناس من رائج وغاد ...

وفى شتى أرجاء المدينة جشد من المكتبات ، ترزح
الكتب مختلفة الأنواع ، وفى بعض هذه المكتبات تُعرض
بجانب المؤلفات السويدية أحدث المطبوعات الأمريكية
والإنجليزية ، وبينها قليل من المطبوعات الفرنسية ، أحسب أنه
للأجانب خاصة ، فقد بدا لى أن السويدي لا يتعنى باللغات

والأجنبية كبيرَ عناية، ومن العسير أن تتحدث إليه بغير لسان
قومه، فقلبا يحسن غيره من ألسُن الناس،

ومع كثرة المطاعم، ووفرة المكتبات، تتوالى التماثيل في
الميادين، وخلال الحدائق، وبحوار الفوارات ... وليست
كلها وقفا على إحياء التاريخ، تمجيد البطولة، وتخلد ذكرى
الأبطال، فإن فيها جانبا عظيما من التماثيل الفنية لإمتاع
الأذواق.

ولك أن تستخلص من «الشارع» الجافل بهذه المظاهر
الثلاثة: المطعم، والمكتبة، والتماثيل؛ — أن «رجل للشارع»
السويديّ يهتم بتغذية جسمه حين يأكل، وبتغذية عقله حين
يقرأ، وبتغذية روحه حين يُمتع ذوقه بفن التماثيل ... وبذلك
يتكامل غذاؤه الذي يجعل منه نموذجا للمواطن الرشيد
البعيد.

والمدينة لا تنسى ديمقراطيتها وتقاليدها، وإن استوفت
وسائل التمدّن العصري ... فكما ترى في شوارع «لوزان»
«زورخ» السويسرية أنموذجا شعبية، ترى في أهم أحياء

مدينة ، أستكلم ، سوقا للخضر والفاكهة في ظلات خشية ،
يفسد إليها حاملاتُ السَّلال من ربّات البيوت ، ليشترين
ما يحتجن إليه .

هذه السوق تقوم في ميدان طليق الهواء يزدانُ بأعمدة
نخعة ، أمامها نُصب فني يمثل شاعرا موسيقيا من الإغريق ،
وهو يعزف ويغني ، كأنه يعلو في الجو ، وعن كُتب منه حلقة
من النيد الحسان متطلعات إليه ، مصغيات لألحانه العذاب
والقوم هنالك لم يبالوا أن يجمعوا في قلب العاصمة بين سوق
وميدان فني ، إجلالا لحق ناله الأهلون من قديم ؛ إذ كانوا
يبيعون في هذا الميدان ما ينتجونه من فاكهة ومن خُضَر .

ومن علائم حرصهم على التقاليد أنك تسمع وقت الظهيرة
موسيقى عسكرية تهز الشارع أو الميدان ، فتهرع إليها مع الناس
فتشهد ثلة من الجنود فرسانا أو مشاة ، وهم مزهوون في أردية
زرقاء مزركشة ، وعلى رؤوسهم خوذة نحاسية تلمع صفرتها
تحت وهج الشمس ، وتسأل : ما الخبر ؟ فتعلم أن هذا عرض
متبع لتغيير حرس القصر ، وتغيير الحرس كل يوم يقتضى

إجراء هذه الزفة الموسيقية، وفقا للأوضاع الموروثة منذ
أمد بعيد .

ومهما يكن حذاؤك لامع الطلاء أو تكسوه غبرة ،
فأنت راغب في استطلاع شأن هذه الظلة الخشبية الحمراء التي
لا تتسع إلا لفرد ، وفيها كرسى يتعالى كأنه عرش ، وكأنك
حين تتمكن عليه قد أصبحت من الغطاريف العظام ... ! وقبلها
يخلو هذا العرش من جالس ، فاسحو الأحذية السويدية يزاولون
عملا من الأعمال الراجعة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإنهم في المدينة
قِلة ، وظُلَّاتهم منتشرة في الشوارع الكبرى ، وهم يتميزون
بالصمت المطبق ، يتولَّون عملهم بلا هرج ولا مرج ، هيات
أن يابسَ أحدُهم بينتِ شفة .

ولللجنس اللطيف في أعمال المدينة صَوَلة ... فالأدوية في
الصيدليات يحضرها الفتيات الغائيات ؛ وهن اللواتي يحصلن
الأجور في « الترام » ، ويقمن بالخدمة في عدد من المَشارِب
والأندية ؛ ويعن المرطبات والمثلجات في ظِلَّات على
الطريق ...

وما راغى إلا أن محلات الحلاقة لا تعرف سواهن ...
أُترّاك تنكر أن تسلم إلى المرأة رأسك ، ولا تنكر أن
تسلم إليها قلبك ؟ ... !

أم تراك تخشى أن تعبت بشعرك عبثاً « دليلة » بشعر
« شمشون » ؟ ... !

لقد احتل الجنس اللطيف كثيرا من وظائف المدينة فيما
شهدت ... ولكنى لم أصادف بين القساوسة أحدا من النساء
البالحات ؟ ... !

وفي يوم الأحد، رأيت في ملعب هنالك جمعا من صغار الطلاب
عرفت أنهم ليسوا من أهل البلد، على قبعاتهم شارة خاصة ترمز
إلى الإقليم الذى وفدوا منه ، وما لبثوا أن صعدوا منصّة عالية
ومثلوا أمام الجمهور، فأشدوا بعض أناشيد ختموها بنشيدهم الوطنى،
يحوظهم من الناس تهلل وهُتاف .

تلك بعثة مدرسية من الصّبيّة، قدّمت «السويده» لتقضى فيها
مدة قصيرة ، فتتعرّف إلى أناس غير الذين تعرف، وتشهد بلادا
غير التى شهدت ، وتطلع على عادات وتقاليد ، وتزور متاحف

ومعاهد ، وتستمع بالوان من اللهب والتسليمة ، فتسمع مداركهم
لحاضرات مختلفة ، وتفتح عيونها على نظم وأوضاع تزيد
خبرتها بالحياة والأحياء...

ولقد تكاثرت أمثال هذه البعثة في البلاد الأوربية
والأمريكية ، إذ تتبادل الدول بعثات محدودة العدد لأويقات
لا تتجاوز أسابيع ... ولعمري إنها لدراسة ما أحوج الطلبة
إليها في طور التكوين ... ففي دراسة عملية يمارسونها في لذة
وشغف ؛ لا يلقون فيها جهدا ، ولا يصيبهم منها ملل . وربما
كانت أشد في نفوسهم أثرا من تلك الدراسات النظرية التي
يعانونها في قراءة الكتب ، وتحصيل ما حوت من معلومات
ومعارف .

قلتُ لنفسي ، وأنا أشهد هذا الفوج من السَّيَّاح الناشئين :
ماذا يكون موقفُ الدول المختلفة منا نحن المصريين لورغبنا إليها
في مثل هذا التبادل للبعثات المدرسية على أوسع نطاق ؟ ...
لأريب عندي — ولا عند غيري — في أنها ترحب به كل
الترحيب ... وبذلك يسعد أبنائنا بمشاهدة العالم المتحضر ،

ويكتسبون بالمشاهدة مالا يكسب القاعد المقيم ! .

هذا العالم المنحضر ، يتوق أهله صغارا وكبارا أن يروا مصر ، وهم يتطلعون إليها تطلعَ لاهف : فالأركان المصرية في المتاحف والمعارض الأوربية والأمريكية تصادف إقبالا نادرَ المثال ، وما من أجنبي إلا يتمنى أن تكتحل عينهُ بمرأى المدَنيات الرائعة : مدينة الفراعنة ، ومدينة الشرق ، والمدنية المصرية الحديثة ، وما تمتاز به « مصر » من جو ساحر ، ومن مناظرَ طبيعية فريدة ...

فلم لا تتبع لأبناء العالم المنحضر أن يكونوا ضيوفاً على « مصر » ، وهم رجالُ الغد ، وأصحاب المستقبل ، فنمد يتنا وبينهم أسباب التعارف ، ونعقد يتنا وبينهم صداقةً إنسانيةً تعين على أن تحقق على ربوع الدنيا راية السلام ؟ ...

ثمانية أيام في قطار الشمس!..

الْيَوْمَ الْأَوَّلُ

عندنا يقول المثل في معرض التهديد : «لَأُرِيَنَّكَ بِحُجُومِ
الظَّهِرِ ... والنجوم لا تنالها العيون إلا في جُنْحِ اللَّيْلِ ، إذْ لا
يُخَفِّقُ لَهَا وَمِضٌّ إِلَّا فِي الظَّلامِ ، فالمثل يعني أن المرء واجد من
الهم ومن الألم ما يظلم له نهاره ، فلا يلبث أن يرى في السواد
نجوم السماء ، وهو من يومه في الظيرة مازال .

ومصلحه السكك الحديدية في « السويد » تقول لك :
«لَأُرِيَنَّكَ شَمْسَ اللَّيْلِ ... يد أنها لا تبغى بك سوءاً ولا أذى ،
ولا تريدُ لك من تهديد ولا وعيد ، وإنما هي تنظم لك رحلة إلى
مناطق الشَّمال ؛ ترى هنالك الشمس طالعة في منتصف الليل ،
فستمتع بمشاهد من مشاهد الطبيعة طريفٍ .

هذه رحلة موسمية ، تستغرق أياماً ثمانية ، وهي تتكرر
أربع مرات في خلال شهر « يونية » والمصلحة لا تفيد بها ربها ،
فالفقعة فيها كبيرة ، والدخل منها قليل ، ولكنها غرض من

أغراض الدعاية مطلوب ، وسيلٌ إلى اجتذاب أنظار السائحين بقدر ملحوظ .

لست أدري أكان إسرَاعنا إلى الاشتراك في هذه الرحلة ، شوقاً إلى شمسٍ تترأى مع الليل ، أم كان استجابةً لإغراء الغطر برحلة تُربى تكاليفها على ما تؤدي لها من أجر ؟ ... النفس طالعة إلى الكسب والاعتنام ، وإن يكن وهما من الأوهام ...!

في نحو الساعة العاشرة من صُبح اليوم الموعود ، كان القطارُ في استقبالنا فخماً يزهو بلونه البُرْتَقَالِي ؛ كأنه مسبوحة الشفق . وكان كل شيء فيه ياتمم . وأكثر شيء فيه انماعا تلك الشارة المتجلية على كل مركبة من مركباته . شارة الشمس ساطعة توهج ..

قصدنا إلى مقصورتنا من إحدى المَرَكَبَات . فألقينا على كل مقعد من المقاعد مُحَفَظَةً رشيقة تحوى قصارى ما يهيم الراكب أن يعرفه من شأن الرحلة ... برنامج مفصل تزينه المصورات . ترجمان سويدي إنجليزي مختصر . بعض

قشرات وكتيبات تتحدث عن المعالم . وأخيرا إشارة كالرِسام
يعلقها عضو الرحلة على صدره ، هى شارةُ الزُملة والعضوية
والاعتراف

أشعت بصرى فى صفحات البرنامج ، فإذا هو مشحون ...
ستطوف بأنحاء « السويد » من « أستكهلم » إلى شمال « النرويج » .
سنمر بكُبَرَيَات المدن ، مجتازين البحيرات والغابات والمناجم
والسهول والحقول ... وسنلمُّ بيلاد « السلاب » الطريفة ...
سنرى شمسَ الليل !

نَهْضُنا نتعرَّف قطارنا الذى بدأ يشقُّ طريقه على بركة
الله ... هذه مثابة سوف نقضى فيها ثمانية أيام بلياليها ، فلنتعرَّف
من أمرها كل دقيق وجليل .

إنه قطار خاص بأعضاء الرحلة ، لا يقربه أحد غيرهم على
مدَّ الطريق ... وقد توافرت له شتى أسباب الراحة والتسلية .
فإن شئت قلت إنه فندق متنقل من طراز رفيع . وإن شئت قلت
إنه باخرة أرضية تستعيض عن الأمواج بقضبان من حديد .

هنا محاذع للنوم ، وأنهاء للجلوس ، ومقاصير للتدخين ، وحجر

للكتابة والمطالعة ، ومطعم ، وحان ، ورجبة لعرض الأفلام
السينمائية ، ومكتب بريد ، ودفون ، تتصل منه بمن أحببت
. ساعة يقف القطار .

وفيما نحن نسير وننتقد ، دُعينا إلى حفلة تعارف في البهو
الكبير ، تضم رفقة السفر ، ودارت علينا المرطبات ، وبرز
هندوب السكة الحديدية يقدم لنا زملة القطار الموكول إليهم
تنفيذ البرنامج ، والإشراف على راحتنا أثناء الرحلة . فهذا ربان
القطار ، وتلك كبرى المضيفات ، وذلك هو المضيف الأول
أو الدليل ، وهنالك المصور ، وغير أولئك عدة من موظفين
وموظفات .

وليس بد من أن تجتمع لهذه الزملة الرسمية سمات خاصة من
جمال الصورة وحسن التقويم ، إلى شمائل خاصة من المراتة
على النكتة الخفيفة ، والقدرة على الثثرة المحبة والإلام من كل
فن بطرف ... هؤلاء الزملاء هم رفاقنا في الرحلة ، عليهم أن
يصحبونا في الخروج والتفرج والتسلية ، وأن يجالسونا على موائد
الطعام والشراب ، وأن يسرعوا إلينا بكل ما نطلب ، ويجيبوا عن

أُسئلتنا وإن تعاصت ، ويحتملوا ما عسى أن نبدي من الحاجة ،
يراققون على الرأى وإن بلغ من السخف كل مبلغ . ويقهقهون
للكثة وإن باخت وكانت أبرد من ليل الشتاء ... وإن على
المضيف الأول ومن معه من الرجال واجبا آخر ، يتصاغر دونه
كلُّ واجب ، ذلك هو أن يراقصوا عجائزَ النساء ! ...

وانقضى حفل التعارف في جو لطيف مشرق تشيع فيه بهجة
وإيناس ، ورجعنا إلى مقاعدنا نتطلع إلى النوافذ تارة ، وننصيح
ما ضمت المحفظة تارة أخرى .

وانطلقت من مُضخم الصوت كلمات تقول :
بعد قليل نبلغ « أبسالا » فلما بلغناها نزلنا من القطار لِنُقَاتِنَا
إحدى السيارات الحافلة ، وتمضى بنا في أرجاء المدينة الهادئة التي
تشقها قناة ، تلك المدينة التي تدين لجامعتها القديمة بالشهرة وبُعد
الصيت ...

ما أشبهها بمدينة « ليدن » في « هولندا » ... هما سيَّان في
المظهر والجو وانفساح الصدر للقناة ، وإن القديم والحديث ليلتقيان في
مدينة « أبسالا » على وفاق ، فهنا جانب يَنفَحُ منه عطر اليهود

الغواير : وهنالك جانب ينتظر بأحدث ما وصل إليه العصر
الحاضر .

زرنا في المدينة قصرأ ملكيا نفيا يزيد عمره على أربعة
قرون .. كانت القصور آتت تستمد نفامتها من الحجر ،
فأظهر شيء في القصر هو الحجارة والبلاط ، وثمة صور وألواح ،
إلى مدافئ عتيقة ، ومقاعد عجيبة من خشب وفي البهو الكبير ،
أوهو المآدب ، يحدثنا التاريخ أن الملكة كريستينا ، أمضت
وثيقة التسخلى عن العرش ، لا عتاقها الكاثوليكية . وليس
البهو اليوم بمهجور ، إلا أنه قد ستم شهود الأحداث التاريخية
الجسام ، فخلص الآن لبعض الحفلات تقام فيه ، وقد حافظ على
طابعه الأصيل ، فلم يأذن للبصايح الكهربائية أن تشوب سكينته
بما لها من وهج ، فالحفلات فيه ما برحت تقام على ضوء الشموع
من تزيينات يدل بها السقف في وقار وجلال .

وتوخينا مبنى الجامعة : جوهرة المدينة ، فراغتني منها
المكتبة الزاخرة التي تحوى مليون كتاب ونحو ألف مجلدة ،
من بينها مخطوطات غرائب ، وكتب دينية مصورة ، ومراسلات

شائعة بين الملوك والأمراء من رجال ونساء. ومن هذه المراسلات ما يميّط اللثام عن طوايا قلوب ! ... وقد شهدتُ فيما شهدتُ من غرائب المكتبة ، كتاباً صغيراً كأنه فلم من الأفلام السينمائية ، ملفوفاً على بكرة ، مَصُوناً في حُقٍّ من عاج ! ...

صَدَرْنَا عن معبد العلم نلشدّ معبد الدين . فإذا هو مبنى أحمر ، شامخُ الأبراج ، طراز بنائه قوطي ، وما اجتزنا البابَ حتى صاح أسمعنا صَوْتُ الأَرْغَنِ بنغمه الهاديء الوقور ، كأنما يزف إلينا مشاهد الكنيسة الجليلة بدعائمها الرخامية على لون الرماد ، وحواميطها الحالية بصور القديسين ، ونواويسها الفخمة التي تطوى أضلاعها على أعلام من رجال الدنيا والدين . ملوك وأمراء بجانب قسيسين ورهبان ... وفي الكنيسة هيكل خشبي رائع ، ومِنَصَّاتٌ مزخرفة مذهبة ، ونوافذٌ متطاولة زجاجُها ألوان ، وعلى الزجاج رسوم ونقوش .

وجعلنا نخطو ونخطو . وصوت الأَرْغَنِ من حولنا عملاً الفضاء ، أكاد أحس أنه صادر من كل شيء في الكنيسة . فكل شيء

فيها كأنه يترجم تسديحا وصلاة ... ورأيتني أمسك عن
الحِطْطُوْهُنِيَّة . وقد تملكنتي روعة الإيمان ! وأى إيمان ؟ إيمان
مسلم في حَرَمِ كنيسة ... ولم لا ؟ والربُّ واحد ، وإن
اختلفت العبادات ؛ وبيت الله واحد . وإن تعددت الأسماء ...
لم يكن عبثا أن صلى المسلمون في « أياصوفيا » كنيسة
« بيزنطة » الكبرى ، وأن اتخذوها مسجدا من بعد . ما نسيت
« زورقي لهذا المسجد الكنسي ، أو هذه الكنيسة المسجدية ، وأنا في
زهرة الصبّا . فإذا هي في عهدها الجديد كما كانت في أمسها البعيد .
لم يتغير من معالمها إلا قليل . وكذلك رقى الواعظ مَنَصَّة القَسَّ
واستأنف رسالته في النصيح لله ، وانبعث تلاوة القرآن من شُرُفات
طالما انبعث منها ترتيل الإنجيل ... !

تالله إن الإيمان في جوهره لا يتفاوت . فهو اطمئنان النفس
إلى المثل الأعلى حيث الرحمة والعطف والحب . وهو مغالبة
الشهوات والنزوات التي تحول بين المرء وبين الخير ما استطاع
إليه سبيلا ! ...

ودعنا الكنيسة ، وبيننا وبينها تجاوبٌ وجدانيٌّ تذكير

نغيات ذلك الأرغن الهادىء الوقور ...

وانتهى بنا السير إلى « أولد أبسال » عاصمة « السويد » فى عهد الوثنية القديم ، فلم نلق بها إلا دوارس آثار ، أظهرها تلال عالية ثلاثة ، شبيهة فى عين الرائي بالأهرام ، تراب التلال ينحط على تراب من أجساد البشر ، فإن تحت التلال رفات ملوك من الوثنيين الغابرين طواهم بطن الأرض ، وإن الناس ليعتسلون هذه التلال — تلال الموتى — ليشرفوا منها على المدينة الحية ، حيث يدبرج الأحياء ... ١

على مقربة من ذلك التراب المركوم بعض شجيرات طال عليها الإمد ، كانت فيما خلا من الدهر تتخذ مشائق ، أو تقدم للآلهة قرايين . وقد روت لنا مضيضة الرحلة قصة طريفة ترجع إلى هذا العصر الجاهلى ، قصة ملك علت به السن ، ولكنه كان بالحياة مشغوفاً كل الشغف ، فكلم امتدت الأيام طلب المزيد . حتى إنه أراد بعض أولاده على أن يبذلوا أعمارهم له ، كي يضيفها إلى عمره ، فطابت بذلك أنفسهم ، وبذلوا له ما أرادهم عليه . وما زال كذلك حتى صار حطاما لا يريم سريره ، غير مستطيع .

أَنْ يَطْعَمَ وَأَنْ يَشْرَبَ، فَكَانُوا يَصُبُّونَ لَهُ اللَّبَنَ فِي فَرَسٍ جَوْفُهُ
مَنْخُوبٌ ، وَطَرَفُهُ مَثْقُوبٌ ، وَيَقْرَبُونَ مِنْ قَدَمِهِ طَرَفَ الْقَرْنِ
فَيَرْتَضِعُهُ كَأَيْهِ حَمَلَةٌ تُدْعَى ... وَهَكَذَا عَادَ الشَّيْخُ الْمُتَهَالِكُ طِفْلاً
رَضِيعاً ، وَلَكِنْ مَا أَوْسَعَ الْبَوْنُ بَيْنَ طِفْلِ يَرْضَعُ لَيْسَتْ قَبْلَ مَبَاهِجِ
الْحَيَاةِ ، وَبَيْنَ طِفْلِ يَرْضَعُ لَيْسَ ضَعِيفٌ إِلَى حَيَاتِهِ عِبْثاً ثَقِيلاً مِنْ
يَأْسٍ وَخُحُولٍ !

أَفْضَى بِأَقَادَةِ الرِّحْلَةِ إِلَى مَطْعَمٍ اخْتَارُوهُ كَيْ تَبْلُغَ فِيهِ بَعْضُ
الشُّطَارِ ، وَتَرْتَوِي بِبَعْضِ الْمَرْطَبَاتِ ... إِنَّهُ حَقّاً مَطْعَمٌ يَنْدُرُ أَنْ تُصَادَفَ
مِثْلَهُ فِي طَرِيقَتِهِ ، مَعْنَى رَشِيقٍ ذُو طَبَقَتَيْنِ ، صَاحِبِهِ مِنْ هَوَاةِ التَّخْفِ
الْعَبِيقَةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِعَصْرِ الْوُثْنِيَّةِ ، وَهُوَ فِي هَوَاهُ مَرَهْفٌ الْحَسِّ ،
مُصْطَفًى الذَّوْقِ ... تَجُوزُ بِحُجُرَاتِ الْمَتْنِيِّ ، وَتَتَقَالَعُ إِلَى أُنَائِهِ
وَمَتَاعِهِ ، وَجَامَاتِهِ وَأَوَانِيهِ ، وَمَا يَحْوِي مِنْ أَلْطَافٍ وَلَوْحَاتٍ ، وَمَا يَزْخَرُ
بِهِ مِنْ قُرُونٍ وَأَسْلِحَةٍ وَتِمَائِيلَ ، فَكَأَنَّكَ قَدْ رَجَعْتَ الْقَهْمَ قَتِيرَ فِيهِ
إِلَى عَهْدِ الْفَرُوسِيَّةِ السُّوَيْدِيَّةِ فِي الْأَعْصُرِ الْجَالِيَةِ ، عَهْدِ أَوْلَئِكَ
الْفَرَسَانِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْتَرِفُونَ الْحَرْبَ وَالضَّرْبَ ، وَيَتَعَاخَرُونَ
بِالسَّوَاعِدِ الَّتِي تَقُتِلُ الْحَدِيدَ وَأَنْتِ فَكَلِمَا طَالِ مَكُونُكَ فِي

هذا المطعم ، غلب عليك الظن بأنك قد أصبحت فارساً من هؤلاء الفُرسان ، فبهتت نفسك إلى أن تحيا حياتهم الأولى ، وتمارس مظاهر عيشهم القديم ، ولعلك أن ترغب إلى صاحب المطعم في أن يقدم لك قُرناً مُترعاً بالشراب ، حتى تمسوّ منه كما كان يصنع الفُرسان في سالف الزمان ! ...

اجتمع شملنا بعد ذلك عائدین إلى القطار ، فما إن احتوانا حتى سار بنا يتهادى ، وقد أمتعتنا وقفته عند ذلك البلد الذي جمع بين المعالم الوثنية والمظاهر العصرية في آن ! ...

ودعانا داعي القطار إلى طعام ... فرأينا الأعلام المختلفة الصغيرة تزين الموائد ، وعرفنا مائدتنا بذلك العلم الأخضر الجميل ، ذی الهلال والثلاثة الأنجم ، وخفقت قلوبنا للوطن الحبيب تحفة اعتزاز ، وكانت لفظة كريمة أوليناها كل اعتداد وإكبار ، فلبثنا على طول الرحلة نأنس إلى علينا المعبر عن نضرة الحياة ، معنيين به شخصيتنا بجوار الشخصيات الأخرى التي تمثل عدة من الأمم والبلاد .

وأمسك القطار عن سيره عند هـ فالون ، ... مدينة صناعية

ذات شهرة ، كانت فيما مضى أشهر البلاد امتلاء بمناجم النحاس .
عماد ثروة السويد ، ، أما اليوم فإن المدينة تصنع القطارات ،
وتجمل المواد الكيميائية ، بعد أن انتهى مجد النحاس ، ولم يبق
في المدينة من مناجمه إلا النزر اليسير ، وهن آثاره إلا فجوات
واسعة عميقة تراها أحمر أذكى ، تتطاير منه رائحة قابضة ١ ...
وهناك بجوار منجم من المناجم النحاسية القديمة ، زرنا
متحفاً للنحاس ، فيه كل ما يقفك على طريقة استخراج
واصطناعه فيما انقضى من الزمان ، وفيه هياكل للمناجم التي
أصبحت أثراً بعد عين ، ونماذج من الآلات التي كانت تستخدم
في استخراج ماحوت المناجم ، إلى نماذج من النحاس نفيسة ، تريك
أنواعه ومصنوعاته من أوعية وآلات .

ورجعنا إلى المحطة ننتظر أن يحين موعد سير القطار ،
ووقفنا أنقل البصر في أرجاء هذه المحطة ... ليس فيها جديد
من التأنيق وتكاثف الزينة ، ولكن جمال مظهرها العادي هو
الذي راقى منها ، وهو الذي استوقف نظري فيها ... أنت في
محطة متألق النظافة ، حسنة التنسيق ، مريحة المتكآت ، كل شيء

فيها كما ترؤم ، لا يخلو جانبٌ من جوانبها من أزاهير تزخر بها الأصص ، فما يكون لك أن تضيقَ بالانتظار ، وهذه الأزاهير من حولك تفنن الانتظار ! ...

سألت الدليلَ في شأن هذه الرياحين التي تزدحم بها محطات السكك الحديدية في « السويد » ، فأجبنى بأن الحكومة تنفقُ في سبيل تزيين المحطات بالرياحين مليوناً ونصف مليون من « الكرونات » ... فأمررت يدي على جبهتي أسأل نفسي : متى تُدعى السكك الحديدية في بلادنا برُكاب القطارات ، لا أقول يامتاعهم والترفيه عنهم ، بل أقول بتهيئة مقاعدَ توفر لكل راكب راحة الجلوس ، أو راحة الوقوف !

وأثار هذا في خاطري مالا حظته في « أستاذكم » ، بل في « السويد » من أقصاه إلى أقصاه ، فقد خلعتُ هذه البلادُ بمأسمتيه الثالثَ البغيض : الفقر والجهل والمرض . كل الناس متعلم ، وكلهم عليه روثنُ العافية ، وكلهم لا يُعوزُه الكسب الكافل لعيشٍ كريم ... سواء في ذلك أهل الحواضر وأهل القرى جميعاً ...

عسير عليك أن تعثر في هذه البلاد على شخص تأخذه العين ، لما يرتدى من ثوب هلال ، أو كسوة تعلوها المقادير . فالزنى مقبول ، والنظافة شاملة ، والتعاش في مستوى لا ينكره شعور إنساني رفيف .

إنها لظاهرة عجيبة ، تبعثني على أن أدعو إلى إيفاد بعثة إلى هذا الموطن الطيب الأمين ، تُلِمُّ بما فيه من أنظمة ، وما له من أوضاع في الاجتماع والاقتصاد ، وتدرس ما يتخذ من وسائل استغلال الثروة وتنمية الحياة ، عسى أن نجد في هذه الأنظمة والأوضاع والوسائل ما يفيد نهضتنا الزاهنة ، تلك النهضة التي بُغِيَ بها القضاء على ثالوثنا البغيض ، بل الخيف :
ثالوث الجهل والفقر والمرض ! ...

غادر القطار د فالون ، في السادسة مساء ، وبعد ساعة وقفينا عند راتفيك ، وهي مزار للسائح ، ومُصْطاف للمقيم . تلالاً لا فيها بحيرة جميلة ، وتخللها خُمائل متشابكة ، وتكاثُر بينها ربوات خُضْر ...

على ربوة زهراء من هذه الربوات يقوم فندق مشرف على

البحيرة رشيقي ، وفي ذلك الفندق دُعينا إلى العشاء ...
الساعات هنا بالطعام كأنهن في لبوس « السويد » الوطني.
المزركش ، والمشهياتُ يدعو تعدُّدها وتنوعها إلى حيرة.
تشغل الأيدي والأبصار .

ولم يرعنى على الطعام إلا هذا الذى يسمى « شرب .
الأنخاب » ... قريبا بين لقيمة ولقيمة ، وبمناسبة وبلا مناسبة ،
أرى المضيفة تتلو كلمة ترحيب ، ثم ترفع كأسها لتقول : فى
صحتكم ... فيردد الجميع قولها رافعين الكئوس إلى الشفاه ...
ولم تخل هنية فى وقت العشاء من رنين الكئوس على إيقاع هذه
الكلمة الخالدة ، مشفوعة بصيحات ونكات كلَّها نشوة
وأنس ومراح .

أيتها الكلمة الساحرة : « فى صحتكم » ... لقد سمعتُ لفظك
مدويا يقرع الأسماع ، ورأيت شرابك زاهيا يتصبَّب فى
الحلق ، فلم أسمع ولم أر إلا خيالا ووهما ... لقد كان شرابى
الذى هو « فى صحتى » أثناء تلك الوليمة الحافلة لا يعدو قدح الماء
القراح ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ! ...

انفضَّ جمع الطاعمين إلى شرفة الفندق المدرّجة ، حيث قامت
جُوقة للغناء بين رجال ونساء في ثياب وطنية طريفة ، فغنت
بعض مقطوعات مسلية تصحبها رقصات شارك فيها من
شارك من رُفقة السفر ! ...

وكان الليل قد أوغل ، إذ دنت الساعة من العاشرة ، ولكن
أَيَّةُ أُمُسيَّةٍ تلك التي نسميها ؟ ... والشمس الآن غاربة ، بل
إن ضوءَها من حولنا غامر ! ...

نهضتُ من الفندق ، والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ،
والرقص دائر لا يفتُر ، فما شأني به ، وأنا لا ناقة لي فيه ...
ولا جمل !

أخذتُ إلى مخدعي في القطار ، والليلة كأنها قهراء زاهية ،
لما يشيع فيها من ضوء الشمس التي قيل إنها في غروب ! ...
وهكذا انقضى اليوم الأول من أيام الرحلة المرموقة ...
رحلة قطار الشمس !

اليوم الثاني

لحنٌ موسيقى ، صافى النغم ، كأنما هو سقسقة الطير
الغادي مع الفجر ، يذيعه القطار في الساعة السابعة ، ليوقظ به
النائمين في أحضانه ، وينهى إليهم مطلعَ يوم جديد ، هو
اليوم الثاني من أيام الرحيل ... وما هي إلا بعضُ ساعة حتى
يطوف كبيرُ الأعوان بحجرات القطار ومقاصيره ، يدقُّ
الأبواب ، ليلقى على رفقة السفر تحية الإصباح ، كأنه
«مُوحَّد الله» في شهر «رمضان» ، يقرع طبائعه وقتَ
السَّحُور! ...

وفي الساعة التاسعة ، كان ركبُ القطار في إحدى السيارات
الحافلة قاصدةً بهم بلدة سويدية ريفية ، والطريق إليها طويل ،
ولكن المضيقة قد أعدت لِتَزِيَّتِهِ بَرْنَاَجًا للتسلية ، فوزعت
كراسية صغيرة دونت فيها أناشيد شائعة ، وما هي إلا أن
استعالت الحافلةُ بمن فيها من الركب جوقةً موسيقيةً شعبيةً ،

أو فرقة مدرسية تترنم بالأهازيج في بهجة واستبشار .
وفي بعض الطريق ، وقفت الحافلة ، فزل منها الركب
إلى المروج ، يرحون فيها مراح الطفولة والصبا ... هؤلاء
يتنزهون ، وأولئك يعدون ، وآخرون يرممون المناظر
أو يرسم بعضهم بعضا بآلات التصوير ... !
وأوفت بنا الحافلة أخيرا على مشارف القرية الصيفية
المنشودة ، وهي أحد المراعي التي تكثر في بلاد السويد ،
قائمة بجوار الهضاب العالية ، والجبال المكسوة بالعشب ،
ترتع فيها قطعان الأبقار والماعز ، في رعاية أسراب من
الصبايا الناضرات ... !

كان في انتظارنا على مدخل القرية فرقة موسيقي في زيها
الوطني ، فانطلقت بنا تعزف مقطوعات شعبية لطيفة ؛ تحية
وحفاوة ، وتقدمتنا الفرقة تهدينا الطريق ، فرأينا أهل القرية
يخفقون لاستقبالنا من أكواخ خشبية ساذجة طريفة
الاشكال ... !

وبلغنا الدار التي أعدت لتضيفنا ساعة أو بعض ساعة ،

تخرج إلينا ذووها من رجال ونساء ، كبارٍ وأطفالٍ ، عليهم
ثيابٌ بيضٌ وحرٌّ مزركشةٌ مُطرَّزةٌ ، وهم مشرقو الوجوه ،
لا يغيضُ على ثغورهم ابتسام الإيناس ، ولا تنضب على ألسنتهم
كلمات الترحيب .

وبين يدي هذه الدار ، ألفينا دكاكا حول موائد خشبيةٍ
عليها طعام ... صحافٌ مُسرَّعةٌ باللبن الرائب ، وأخرى مملوءةٌ
بمُرَبَّى الثُوت البرّى ، وخبزٌ رحراحٌ يلفونه أصابع ...
وجلسنا نُصيب من هذا الطعام الريفي الأصيل في تلهذ ،
والمراعى عن كذب منا تتنقل فيها قُطعان الماشية ، كأنها حَرَسَ
الشرف في استقبال الضيوف الوافدين من بعيد ! ...

وتجلى أحدُ أبواب الدار ، وبين يديه فرن ضخم ، فألبثُ
أن نفخ فيه ، فاسترسلت منه أنعام عذاب تشبهُ التقاسيم
أو الليلَى في الأغاني المصرية القومية ، كأنما يتحنن بها
نأى رقيق ...

واحتوتنا الدار هنيئةً نستريح ونتفرج ، فاسترعت انتباهي
فيما رأيت أوضاع المراقد أو الأسرَّة ، فهي صناديق

من خشب ، داخله في الحوائط تنسدل عليها أستار
مزرکشة ! ...

وكان انصرفنا من الدار ، فإذا أهل القرية قد اجتمعوا
للملحجة والتوديع ، واخترقنا طريقا ساذجا متعرجا يؤدي إلى
ساحة القرية ، أوفنائها العمام ، فاحل قرية هنالك ساحة
أوفناء ... رجة يقيم فيها الأهلون حفلات الرقص في
المواسم والمناسبات ، تنوسطها سارية عالية مضمفوة بأفنان
الشجر ، حولها يتحلق أولئك الأهلون ، ويبدون الرقص ،
متماسكة أيديهم في تصايح وابتهاج ...

كذلك فعلوا ساعة وصلنا إلى الفناء ... فانضم بعضنا إلى
حلقة الرقص ، وهم يقاسمون الأهلين تضحك البشر والانس
والارتياح ...

وقد علمت أن القرويين يحتفلون في مثل هذه الساحة بعيد
الصيف ، شهر الإشراق ؛ إذ يتقاصر الليل ، وتنقش الظلمة ،
ويتواصل الضوء الساطع البهيج .

عدنا إلى الحافلة لتسير بنا إلى بلدة « مورا » ، تلك البلدة

التاريخية التي اشتهرت بحرب الاستقلال ، خلال القرن السادس عشر... ولم تقتصر «مورا» على تلك الشهرة الوطنية أو السياسية ، وإنما أتيحت لها شهرة فنية جعلتها كعبة الفن الرفيع ، فهي بلدة الرسام العالمي « زورن » ، فيها داره ومتاعه ومرسمه ، وفيها متحف يصون آثاره التي تملأ العين من متعة ، وتملك النفس من مهابة وإكبار .

دار الرجل ذات طبقتين من الخشب ، طابعا ريفي ، ولكنه الريف المتحضر ، فكل محتويات الدار تريك الفن الجميل ممزوجة بروح الريف وخصائصه ...

الأصوثة في الحوائط مصنوعة من الخشب الملون المزخرف ، والمدافئ متعددة على الطراز القديم ، والمشجب مازالت عليه معاطفُ الرسام وقبعاته ، وثمة مجموعة من الألوان الفضية المنقوشة ، تعد في طليعة المجموعات النادرة ، إلى غير ذلك مما ينبئ عن حياة فنية مترفة ، لا تزهد في شيء من ملذات العيش ونعيم الحياة ... وفي الدار حجرة عصرية خص بها الرسام صديقه « أوجين » ، ذلك الأمير الفنان الذي كان حفيا بالرسام الفنان ، ينزل عنده

فى الفينة بعد الفينة ، لئيتع روحه بجوفى خالص .
وفى فناء الدار كوخان طريفان فى كل منها مرسم ريفى
ساذج ، وأحد هذين المرسمين مقصور على رسم النساء عاريات
إذ كان « زورن » يهوى العُرى ، ويتجلى هذا الهوى فيما أبدع
من رسوم .

وقد مررنا بعد ذلك بحظيرة ماحقة بالدار ، تجمع ما كان
يتخذ الرِّسَّامُ لانتقاله ورياضته من مركبات وزلاجات .
وزرنا متحف الفنان ، وهو مبنى عصرى يلتقى فيه الكثير
من ألوانه ، ومن أروع ما رأيته فى المتحف لوح رسم فيه
الفنان نفسه ، وهو فى ذروة رجولته ، وأوج شهرته . . . طلعة
زاخرة بالقوة والفتوة والثقة بالنفس ، وعين نقّادة كعين
الصقر مفصحة عن إرادة صلبة وعزم جبار ، وقامة مبسوطة
مكتنزة ينفخ منها عطر التعاق بالحياء ، والتشهى لما تحوى من
متع وريّاب .

لم يكن فى « زورن » أول أمره خارجا عن نطاق « المذهب
الأتباعى » القديم ، فالخطوط ثقال ، والألوان متميّزة ، ولا

شيء يبعث على التخيل والاستحياء ، فلما حل « بياريس » تأثر
بالمستحدث فيها من مذاهب الرسم ، واتجه اتجاهها من بعد ،
فأصبحت رسومه خالية من التفاصيل الجامدة ، الخطوط ترف
رقيقاً ، والألوان منسجمة يمشى بعضها في بعض على رقة
وترفق ، والمنظر لا يعطيك روعته إلا إن تناءت عنه ،
فاذا قاربه لم تر فيه إلا بسطاً من الألوان لا تُفسر
عن كيان ! ...

هذا الفنان العظيم الذي دانت له الثروة ، وسعى إليه المجد ، كان
وليداً بـ ألماني وأمٍ سويدية ، يعيشان في القرية ، فقضى صباه
معهما يرعى قطعان البقر ، ومالبث أبوه أن فارق الدنيا ، فاحتل
الفنان تبعاً للحياة في همّة ومضاء ، فهو ابن صميم لهذا
الإقليم الشائر للاستقلال ، المشبع بروح الحرية والتعويل
على النفس ...

ظل الفنان يعمل ويعمل ، حتى أزهرت مواهبه ، وطار
صيته ، فارتحل إلى بلاد أوربية وأمريكية ، ومكث في « باريس » ،
بعض حين ، واستقر به المقام في بلدته الطيبة ، حيث الريف

الحبيب إليه ، العزيز عليه ، وما زال فيه حتى اليوم ، تخيا روحه :
وَتَتَنَضَّرُ ذِكْرَاهُ ! ...

انبعثت بنا الحافلة إلى مقاطعة داليكيرا ، نُبلمُ فيها بجانب
من قرى تمثل الريفَ في أظهر خصائصه ... ونزلنا في إحدى
هذه القرى ، ليضيفنا فندق ريفي "مخوف" بالأزاهير ، ومن
دونه تمتدُّ المراعى والحقول ...

على باب هذا الفندق استقبلتنا ربَّته العجوز ، وصبايا أربع
مشرقات يُزْهِينَ بلبوس وطني ، وهن يُزلقن إلينا التحية في
أدب جم ، وعلى محياهن يترقب بشر وطهر .

وجلسنا نحتسى أقداح الشاي ، والصبايا الأربع يُنشدن لنا
مقطوعات شعبية رقيقة ، وكل شيء حولنا يتنفس أنفاس الطبيعة
الصافية ، والفطيرة السمحة ، لا صنعة ولا زخرف ... فهذه
القرية ليست موطن المحافظة على القديم في طراز البناء وحده ،
ولا في الأثاث وحسب ، ولكنها تجمع إلى ذلك طابع المجتمع
الريفي الذي يتميز بكرم الطبع ، وطيبة النفس ، وشيمة الصراحة
والإخلاص ...

وانتقلت بنكه الحافلة إلى قرية أخرى ، فاجتزنا نهرا على
شاطئه نوع من الزوارق طريف ، فهي زوارق تمتاز بطولها كأنها
أعدت للسباق ، ولما سألتنا عنها أجبنا بحجب بأنها تسمى « زوارق
الكنيسة » ، وأنها خاصة بمجفلات الأعراس ، منها يتألف « موكب »
العروسين وذويهما في اليوم الموعود ، فهي تمشي بالموكب إلى
الكنيسة ، حيث تجرى مراسم الزواج ! ...

وكان مقرر أن تناول العشاء في فندق للسياح على الطريق ،
واستبان لنا أنه ليس بمجرد عشاء ، وإنما هي حفلة « ساهرة » ، ظاهرة
الذيل ، تمتد إلى الليل ...

واستهل العشاء بالصحن التقليدى ، صحن الشطائر ، وتوالت
بعده الصحون والصحاف مختلفة الألوان ، وتعددت معها
الأشربة المنعشات ، وتعالى التضاحك والتصايح والغنى ...
لم يقتصر الأمر على الغناء ، وإنما صحبه الرقص ، بيد أنه رقص
يؤدّه الطاعمون وهم على المائدة لا يبرحون ! ...

تلك هي المضيضة تنتخب أغنية فنلندية خفيفة ، لها مقطع يتكرر ،
والرافاق المتقابلون على المائدة يأخذ بعضهم بأيدي بعض ، ويهتزون

هزّاتٍ متجاوبةً على إيقاع من ذلك المقطع المتكرر...
حقاً إن الفنلنديين قوم ما هرون في فنّ الأكل ، أوهم على
الأصح يحذِّقون فن الهضم ، فهم يتكرون رقصات هاضمةً
أثناء الطعام ، لكي يتاح لهم أن يطيلوا على المائدة جلوسهم
آكلين ! ...

ولم يترك الجمع مائدة الرقص ، أو رقص المائدة حتى بلغت الساعة
الحادية عشرة ، قبل مشصف الليل ... فعادت بنا الحافلة إلى
القطار ، وضوء النهار الخافت يملأ الأفق ! ...
وأذن القطار بالمسير ، متجهاً إلى الشمال ...

اليوم الثالث

ذلك هو القطار يَجِدُّ بنا محترقا مناطق الشمال ، أو بالأحرى
يفتحهم بلاد اللّاب ، ... وسيطول احتباسنا في جوف القطار ،
إلى الثامنة من المساء ، ثم يبدأ البرّ ناصحُ الموعود ...
أنت لا شك قائل :

إذن هذا برّ ناصح ليلي ساهر ...

وما هو في الحق إلا برّ ناصح في ضوء الشمس ، فإن الشمس
في هذه المنطفقة لا تُؤذِن بالغيوب ، ونحن نعيش هنا في
نهار دائم مديد .

الجو مبترد ، ولكن القطار دافئ ، ونحن في بهوه على مقاعد
بريحة تملئ من حولنا مشاهد الكون ... غابات من حيثما
تتلفت ، وديباجة خضراء تكسو كل رقعة من الأرض ، وزبما
أفترجت إحدى الغابات عن بحيرة أو مسيل ماء ، ثم لا تعدم
الغابات أن ينطبق بعضها على بعض ، يحوس خلالها القطار

الزاهي ، كائنه زهرة مضيئة تنساب بين الأعشاب .
لزمت النافذة لا أريم مكانى فأثارنى مضخم الصوت يدعو
الجمع إلى المركبة الأولى ، كي يشاهدوا رواية سينمائية ، فتعوذت
بأنه من هذا الشيطان السينمائى الرجيم ، الذى يلاحقنا حتى فى
قطار هارب من أنوار المدينة ، سارب فى ثياى الغاب !
هيهات أن أترك مقعدى ، لأعوض من هذه المناطق
اللائية الطبيعة الطريفة مناظر من تدير الإنسان ...
حسبنا مكن يا حسان هـ هولبود ، فلتركننا وقتنا
نستمع شئ ، أئمن وأغلى من جمال الكُن المصنوع ، هو جمال
الطبيعة البكر ، جمال الفطرة الوحشية التى تأتلف فيها السذاجة
والراءة والرَّهبة الرائعة ، فلعمري إن هذه الفرصة تادرة ،
وإن هذا اليوم مشهود .
وبعد أن أصبنا غداةنا ، أعلنت المضيفة أنا مجتازون
بقطارنا خط المنطقة القطيصة فى الخامسة ، وأن القطار
واقف بنا هنالك لاحتفل يلوغنا ذلك الخط الجغرافى ، فى تلك
الاصقاع ... !

وبينا نحن في فرحة بهذا النيا، إذ قالت المضيفة :
إن عليكم أن تحذروا ما ينقش المنطقة هنالك من بعوض ،
وليس لكم من حيلة لا تقواء أذاه إلا أن تدهنوا وجوهكم
وأيديكم بسائل زيتي تستطيعون الحصول عليه من صبدلية
القطار، فهلوا إليها جميعا .

وأها من هذا المخلوق البغيض الذي نراد على استقباله ،
والمكوث معه . ما لنا ولمنطقة البعوض نسعى إليها طائعين ،
ونقف عندها مختارين ؛ كأننا نسعى إلى زيارة حبيب
مرهوق ؟...

عجبتُ لأمر هذا البعوض ، ما علة انتشاره في تلك
البقعة ؟ ... وكيف عجزت حضارة «السويد» أن تستأصل
شأفته ، وتريح الناس من شره ؟ ...

سألت أهل الذكر من الرفاق ، فكان جوابهم أن هذه
المنطقة تكثر فيها المانع المتخلعه عن الأمطار ، وما أسخى
السما بالأمطار في تلك الديار ... والصيف في «السويد»
لا يزيد على أشهر ثلاثة ، تشرق فيها الشمس ، ثم يقل

سطوعها إحيانا بعد حين، فتتكاثف الظلمة 'مُعْظَمَ' الوقت،
وتهمي الأمطارُ على غابات كثة تحتفظ بالماء في أرضها الغائرة،
ولا تأذن لأشعة الشمس أن تخترقها وتجففها إلا بقدر قليل،
ومن ثم تظل الأرض مشبعة بالماء تنضح برِكا ومَسَايل،
وليس من وراء ذلك إلا أن يتخلق البعوض، ويحيا حياة طيبة
مباركة في أمان الله ! ...

أوفي ينس القطار على الخط الجغرافي العظيم، فنزلنا منه
تُطالغنا شبه قرية من بعيد، ومشينا خطوات إلى خيمة من
« اللاب »، وعن كنب من الخيمة وقف رجل فارغ القامة،
تهدل على وجهه لحية ناصعة مستعارة، وتنسبط على شعر رأسه
المستعار قلنسوة صوفية كبيرة، وقد ارتدى معطفا من القرو
الغليظ، واتخذ في قدميه حذاء طويلا من الجلد الثخين، ومن
خوله نفر من اللاتيين أقزام، فيهم الشيخ وفيهم الشاب
وفيهم الصبي، وهم في ملابس زاهية زرقاء وحمراء، على رؤوسهم
حراطين ذات ألوان.

وتقدمت المضيفة أمامنا إلى الرجل ورهطه، وأشارت.

إليهم يقول : هذا صاحب الجلالة الملك « بوارا » ، ذلك الإنقطاع
الشمالي القطبي ، وأولئك وزراؤه وأمناءه وحاشيته .

يا لها من مسرحية ظريفة ... مسرحية يأبون إلا أن
يجعلوا منا نحن ركاب القطار بعض أبطالها الأفتاد . فإن علينا
أن نتداني من أعتاب المساك المعظم ، وأن نقدم له ولاءنا قبل
أن نطاء حماه الأمين ! ...

وماكدنا ننهل ونحو جلالته المهيبة ، حتى خرج علينا من
الأحراج القرية أفواج من البعوض الذي توعدتنا به مضيقة
القطار قبل ساعات .

إنه جيش عرمرم وحق السماء ... ولكنه جيش صامت
ركن ، لا يطن طنين البعوض المستضعف الذي نعهده في بلادنا
للتواضعة ...

أي بعوض هذا ؟ وماذا نسمى الجرّاد ، إن كانت هذه
الحشرة الكبيرة الجثة من فضيلة البعوض ؟ ...

رفعت بصرى إلى صاحب الجلالة القطبية ، ولسان حاله
يقول :

أهذه قواتك المسلحة الجوية يارب الساج والصولجان ؟
أترك أطلقتها لتحيي بها ضيوفك المسلمين ، أم لتقلاً بها قلوبهم
من خشية لك وترهيب ؟ ... ما أحقك بأن تسمى ملك البعوض .
وما أحق مملكتك اللالية بأن ترهؤ وتفاخر بهذا الجراد البعوضي
المبثوث ... هذا الجيش الذى ينافس أحدث أسلحة الطيران فى
جيوش الدول المتحضرة !

سمعا ملك البعوض يتكلم ، فهذا صوته العريض المجلجل
يلقى علينا خطبة ترحيب ، وما إن أتمها حتى مر رنابه عند له الأيدى
مصالحين ، وتحنى له الرؤوس مكبرين ، فأسلم إلينا أو سمة عليها
شعار مملكته الغمراء ، وشهادت مذهب مدونة بها أسمائنا
تثبت ممثلنا بين يدى عرش اللاب ، العظيم ...
حمدت الله على رجوعنا إلى القطار ، وقد نجوتنا من ذلك
الجيش الطائر ، فلم تقم بيننا وبينه إلا مناوشات خفيفة كانت
فيها أيدينا هي كل ما نملك لأنفسنا من دفاع .

وما كدت أجلس على مقعدى فى البهو ، حتى برزت لى
ذباب ، لا أدري من أين نجمت ؟ ذبابته واهنة من الذباب

الضئيل المعزود ، جعلت ترف حياى على استحياء ...
 فاستكفت أن أنجبها عنى ، ولو أنى علمت منطق الطير
 أو على الأصح منطق الحشرات لاشعرت هذه الذبابة بترجيى
 بها ، أين هى من ذلك الجراد المتوحش العتبي ، ذلك الذى كابدنا
 الحذر منه ، والتوقى له ، وفرحنا بالسعد عنه ؟ ...

هذه ذبابة أنيسة إذا وازنا بينها وبين بعوض « اللاب » ...
 لقد ناصبناها العداء فى « مصر » ، وكدنا لها كل كيد ، وأقننا
 من شخصها تمثالا بشعا ضحيا للتشهير بها وللتشيع عليها ، وطفنا
 بتمثالها فى المسالك والدروب لينفر الناس منها ، ويطهروا الأرض
 من جرثومتها ... فما يستطيع القوم هنا أن يصنعوا لهذا الفحل
 المستأسد الضارى حتى يكفوا أذاه أو يبيدوه ؟ ...

اطالما أنكر الإنسان مخلوقا ماحولا ، فأنهى عليه
 باللوم ، وظن به الشر كل الشر ، وإذا هو بعد حين أمام
 مخلوق جديد يجعله غير آبه بما كان ينكر من قبل ، بل
 يحسب أن ذلك المخلوق القديم ملك من الملائكة طهور ،
 فيشكر الله على أن قدّر ولطف ! ...

صاح بنا مضخم الصوت في القطار ، يقول :
الآن اجتزنا خط القطب ، فن شاء أن يكتب بطاقة
لأهله وذويه فليفعل ، البطاقات معدة ، ومكتب البريد
مفتوح .

سارعنا زفّاً إلى أهلنا وذوينا نبأ بطولتنا السعيدة ، بطولتنا
اتحاما مملكة الصقيع في فصل من فصول الزمن ليس فيه صقيع ، :
مباهين بأننا على رأس القطب ، والقطب منا بعيد بعد الشمس ،
مفاخرين بأننا في مملكة اللاب ، ، ونحن لم نر من هؤلاء
اللايين إلا ملكا زائفا تحديق به حاشية زائفة مثله ! ...

تلك هي حقيقة الحياة ، يضحك منا خلق الله مخادعين ،
فنضحك نحن من أنفسنا مخدوعين ! ...

إنه حقا خط القنطرب ، ولكنه خط توهمه العلماء ،
وحفلت به المصوّرات الجغرافية مرسوما بالقلم ، وأنت تتوهم
أنك تتخطاه حين تتجّاز منطقة الجليد ... فإذا بحثت عنه على
بسيط الأرض ، لم تبلغ مطمح النفس ...

هذا الفاصل القطبي يماثل خط العرض الذي يفصل

كوربا ، الشمالية عن أختها الجنوبية ، وهو خط لامعالم له
على الطبيعة إلا مخافر للجند ترينها الاعلام ، وما أشبه هذه
المخافر بخيمة ذلك الملك اللابى المستعار ، وما أشبه جند
المخافر بتلك الحاشية الملكية اللابية التى هى زيف وتمويه ...
الأرض أرض الله ، مبسوطة لخلق الله . وما هذه القيود
والحدود إلا خدع وأوهام ...

أدى بنا القطار إلى « جاليفار » ... بلدة صناعية فى منطقة
غنية مناجم الحديد ، فافتتحنا زيارتها بالذهاب إلى كنيسها التى
تختلف عما شهدت من المعابد فى عديد من البلدان .

الكنيسة عصرية الطابع ، فالمبنى ليس بالضخم ولا بالفخم ،
وإنما هو صغير رشيق يشبه مغنى قرويا مما يقام فى البلاد
الأمريكية ، فكأنها أراد به أصحاب الكنيسة أن يصبغوا
الدين صبغة عصرية فيها فتوة وتجديد .

على باب الكنيسة حيانا شاب موسيم الحياء ، مألوف الزمى ،
حسبناه بادىء بدء أحد الزوار ، وإذا هو القس ، وجهه حى
حياء عذراء دافقة من الخدر ...

وطاف بنا القسُّ في أرجاء الكنيسة ، فلم نر إلا إشراقا
وبساطة ورشاقة ، لا صور قدَّيسين تزحم الحرائط ، ولا
نوافذ كبيرة زجاجها مُلوّن ، ولا تماثيل عابسة تبعث
الرغبة ، ولا ضرائح تُذكِّرك بِرَوْعة الموت ، وتثير في نفسك
وطأة الحساب والعقاب .

الصور التي تكسو الجدران صور لشجرة التفاح ، عليها
ثمره الفضى الشهيء ... وكأنهم استعاضوا عس كل شيء بهذا
التفاح ، رمز الخطيئة الآدمية الأولى ، وشعار الخروج من
الجنة إلى دنيا البشر ، فاتخذوا منه أسلوبا لبقا مهذبا في الرعظ
والتذكير ... !

رجال الدين في هذه البلدة قد ثاروا على ما يسود بيوت
العبادة من عُرف وتقليد ، فهم يؤثرون البساطة الحقّة ،
والإيجاء الخفيف ، وعندهم أن روح الدين هي الكفيلة بالتأثير
في النفوس ، فإن لم يكن لروح الدين تأثيرها الحر الطلق ،
فلا خير في مظاهره ثقبه فاجعة ليس أثرها بالباقى ولا
بالعمق ! ...

خرجنا نطوف ببلدة « جاليفار » ... هي بلدة عُمّال ،
دورها فيها على طراز ريفي عصرى ، تكتمل له وسائل الراحة ،
والطرق فيها توافرُ بها مظاهرُ النظافة والتنسيق .

وسرنا وقتا فوق مناجم الحديد ، ثم بدا بجوارنا وادٍ
منخفضٌ تتجلى فيه أبنية المناجم . وما يتصل بها من خُطوط
السكك الحديدية المشبكة ، وقد قيل لى هناك إن الإنجليز
أول من استغلوا تلك المناجم ومدّوا هذه الخطوط ، ثم خافهم
عليها السويديون أصحابُ البلاد .

وفى البلدة قصدنا كنيسةً لائيّة متغلّغة فى القدم ، أسهم فى
بنائها يومئذ أهلُ السويد بأمر من ملكهم القائم ، والكنيسة
متناهيةٌ فى السداجة تحسبها الزائر مخزنا مطبقا من مخازن الحاصلات .
وفى الساعة الحادية عشرة من هذا المساء ، والضوء فى نواحي
الآفاق كصبغة الشفق ، يحاكي ضوء ساعة الأصيل ، يودى بنا
أن نتأهب للعودة إلى قمة الجبل ، كي نشهد شمس منتصف
الليل ...

واحتوتنا السيارة الحافلة ، ونحن صامتون نأملُ فيما نستقبل

من ظواهر كونية عجيبة ، ظواهر انقلاب أوضاع الحياة في ثوبتة
الشروق والغروب ، وفي تعاقب الليل والنهار ...

لبثت الحافلة نحو ساعة تُعاني التصعيد في طريق جبلي
أغبر تخلّص من مسلك وعثر إلى مسلك أشدّ وعورة ،
حولها صخور تتلوها صخور ، وعن كثب منها حضائر المناجم
هائلة المهوى .

سمونا بأبصارنا إلى السماء ، نلتبس عندها الخلاص من
وعناء الأرض وجهامة الطريق ، وعند السماء تفرّج الكربة
وتسليه النفس ، وتلك هي السماء تمتع أبصارنا بضوء أرواني
لطيف يغمر الأفق ، فيبعث في نفوسنا طمأنينة ودعة .

وتسمنت بنا السيارة الحافلة بقعة كأنها القمة ، وإنها لبقعة
نباتها مجمّد شائك ، وهوأؤها فارس ، وقيل لنا انظروا في ساعاتكم
فأتم الآن في ضياقة الشمس ، علي حين أن الليل في المنتصف !...
وتطلعت إلى الجهة المقابلة لتلك القمة ، فألفيت السحب
تبدو وتختفي ، تتكاثف وترق ، كأنها لثام يترأى خلفه قرص
الشمس أحمر يتوهج ...

يا لله لهذه الحسنة التي يدعوها الحياء ألاّ تُسفرَ بحسنها
للنظر المنهوم ...

أفي منتصف الليل نحن حقا ، أم في ساعة الغروب ؟ ...
لقد شهدت الشمس قبيل المغرب في « الإسكندرية » على
شاطئ البحر ، فإذا هي على نحو ما أشهدُها الآن والليل مُنتصف ...
قرص لَمَّاح ينشرُ صبغته الأراجوانية حوالبه ، فيسحر
الاعين ، ويهزُّ المشاعر ...

كنت أقف لأتملّئُ هذا المشهد دقائق . وما هي إلا أن أرى
القرص الأحمر يتهاذى في نزوله إلى البحر ، فيتلقاه الموج
نشوّان ، ولا يلبثُ أن يطفىء وهجه ، ويطوى صفحته ،
ويبدّل الكون منه غلائل الظلام ...

أما في هذه البُقعة ، فإني أمكث الدقائق تدبّعُها الدقائق ،
والقرص أمامي زاه خلف لثامه ، كأنما يتسم لي قائلًا :
لا غروب اليوم أيها الهائم المفتون ، فلتتروا من التلي ما طاب
لك أن تتروى ..

وتراخى بي الوقت ، وأنا محدّق في الأفق ، أيقب ساحرة

الفلك ... فألفيتها تنتقل ناحية المشرق على رفق ، وهى على حالها
من التَّوَهُّجِ والسُّطوع ...

أيها القرص العظيم ... أأنت حقاً شمس المشرق التى نودّعها
كلّ مساء بدعاءٍ من شرُفات المآذن يرينُ في السماء ، معلنا اختفاءك
من الدنيا وانسلاخ آية النهار ، ثم نستقبلك عند الفجر بهذا الدعاء
الذى تتجاوبُ به أنحاء الفضاء ، مؤذِنا بعودتك الظافرة وانتساخ
آية الليل ؟ ...

أأنت حقّاً شمسنا التى تذهب عنا كل مساء إلى مجاهلٍ نائية
حوثوب إلينا كلّ صباح من آفاقٍ بعيدة ، فنعجب من اختفاءك
الذى ليس منه بد ، وتدهشنا عودتك التى لا تتخلف ، وتخامرنا
فيك أشتاتُ الظنون ؟

هنا على قمة هذا الجبل الصخريّ الأَجْرَد ، نكشف خيبة
سرك ، ونعرف جليّة أمرك ، فلا مجاهل تقتصك ، ولا بحار
تبتلعك ، ولا كهوف تخفيك وتحتجزُك ، وليس من ليل ينسدل
عليك فيحملك ، ولا من مرقد لك فيه راحة إلى حين ، وإنما هو
الإشراق الدائم والسطوع الدائب في ماضٍ وحاضر وآت .

لقد بنت كما أنت ... كوكبا متألقا يجرى ويجرى ، لا الغاز
تحيط به ، ولا غموض يشوب نضوعه ...
ما شأنك أيها الشمس بالخفاء والإبهام ، وأنت التي تزيحين
عن الدنيا غواشي الظلام ؟ مالك وللأسرار والأستار ، وأنت
عروس الوضوح والجيهار ؟
أنت يا حسناء السماء بهجة ورؤاه ... تتجددين مع الدهر ،
فليس لأيامه منك منال ، جمعت بين القوة والعظمة والفتنة ،
وأفضت على الكون نورك الخلاب ، وظلت كنز الحياة ومصدر
الخير للنبات والحيوان والجماد ، حتى فتن الناس بك فعبدوك في
خوالى العهود والأزمان ، وما كان عبثا أن أنظر إليك الآن في
خشوع وإكبار ، وأنت تتخطرين مهيبية على قمم الجبال ، تحف
بك قطع السحاب ! ... فأنت حقاً من صنع خلاق عظيم ! ...
أرجعنا الحافلة إلى مخادعنا في القطار ، والساعة قد جاوزت
الواحدة بعد منتصف الليل ، والشمس مصعّدة في برجها الرفيع ،
معتلة الأفق البعيد ، مهتة لتألق جديد ...
وعلى وسادى ، أطلقت العنان لأفكارى ، وأنا في غفوة

الحالم، متراخى الأوصال ...

وجال بخاطري سؤال لا يَقَرُّ له قرار :

ما حكم الصائم حين يحِلُّ به « شهرُ رمضان » ، في هذه
الأصقاع ؟ ... إنه إزاء نهار دائم لا ينقطع ، فأين الخيط
الأيض والخيط الأسود ، يتبين أحدهما من الآخر ، لِيُمْسِكَ
الصائم عن طعام وشراب ؟ ...

أَيُّظِلْ طَوْلَ الشَّهْرِ كُنْ شَأْنُهُ صِيَامُ الدَّهْرِ ؟

لستُ من أهل الشريعة فأفتي ، وما أنا هُنا في « شهرِ
رمضان » ، يقتضيني الأمرُ أن أَسْتَفْتِيَ ، وما أَحْسَبُ هذا
الشهر الكريم يز في هذه المنطقة القُصْوَى بصائم يطلُبُ
الْفَتْوَى ! ...

أَسْدَلْتُ ستارة النافذة ، لتجُبَّ عني ضوءَ الشمس ، حتى
أَوْهَمَ نَفْسِي بأن الليل قد حلَّ ، وحن الاستسلامُ للنَّامِ ! ...

اليوم الرابع

ظلمنا في القطار إلى الضحوة العالية، وقيل الظهر احتملنا
السيارة الحافلة إلى « بورجس » . وأصدقُ تسمية لها مدينة
الشلال ، فإن فيها شلالاً عظيماً تُقام بجواره محطةٌ كبيرة لتوليد
الكهرباء .

كان أولَ عمل لنا في المدينة أن ضمنا قاعةً للمحاضرات ،
تحدث إلينا فيها مندوبٌ من هيئة العمال ، فشرح لنا مستعينا
بالمصورات : كيف يستغلّون الشلال في توليد الجوّهر
الكهربائي النفيس .

واستمتعنا بطوفة في المدينة العمالية الرشيقة ، بيوت العمال
فيها من خشب ، وهي مقامة بحيث يسهل تفكيك أجزائها ونقلها
إلى حيث تُريد ، لتقام من جديد .

وعلة إثارة القوم لهذه الطريقة في إقامة البيوت العمالية أن
العمل يجري في تلك المنطقة لتنظيم الشلال ، وإقامة المحطة .

الكهربية ، وهو عملٌ ينتهى عما قليل ، ومن ثم تبطل الحاجة في المنطقة إلى العمال ، فينتقلون إلى منطقةٍ أخرى تقام فيها منشآت جديدة ، فلتنتقل معهم بيوتهم التي سكوا إليها فترةً من الزمان ، ولتتبعهم كما رحلوا إلى ناحية ، كأنها خيامُ البدو يقوِّضونها ويحمِلونها معهم لينصبوها حيث ينتجعون .

سرنا صوب الشلال ، وشرعنا نزل في مهبطه ... مسلك صخري صعب ، أرضه ريانة ، وحواليه شجيرات عجاف لا تنبت إلا بجهد ، فهو طريق لك أن تصفه بأنه عفر الطبيعة ، فما جالت فيه يد الإنسان بكثير من التمهيد والتعبيد .

كنا نقفز على الطريق نارةً ، ونتمهل نارةً أخرى نرتفع حيناً مع الأنشاز والجسور ، وننخفض حيناً مع المنحدرات والوهاد ، حتى وافينا الموضع المختار في هذا المشهد الفريد ، مشهدِ الجُزر أو أشباه الجُزر التي تواجه الشلال العظيم .

وقفنا لحظات نسرح البصر ... الماء فوار يرغو ، وهو يتتابع على درج الصُّخور كأنه سباع استبدت بها الضراوة

والا هتياج؁ فانقضت يلاحق بعضها بعضاً؁ وزئيرها الوحشى كهزيم الرعد يرتج له الفضاء .

إن هذا الموج النائر لينزل إلينا؁ وقد انكسرت حدبته؁ وقُرت شدته؁ ولكنه لا يفتأ متسايلاً على أرضٍ تتناثر فيها الأحجار...

وعندنا ترتق المسالك الصخرى الزلّية... لكى نستأنف زيارة قمة الجسر؁ يجسر الخزان الذى أقاموه ليحاصروا به الشلال عند رأسه؁ ويلجئوه إلى مضيق فيزيد ذلك من تدفق الشلال واندفاعه؁ ليتيسر استخدامه فى التوليد الكهربى . . .

سمت بنا السيارة الحافلة إلى هذا الجسر السامق؁ كأنما هو الطود الباذخ؁ فألفينا قته مستطيلة مستعرضة؁ يفسح فيها طريقه مازال العمل جارياً فى إعداده .

فى هذه القمة تهيمن الصناعة على الطبيعة؁ إذ تتحكم فى الشلال وتخضعه لأمر عمرانى جليل . فهذا الشلال الذى أوسعت الطبيعة من جوانبه؁ فبددت من قوته؁ وأضعفت من سيطرته؛ — تعتمد إليه الصناعة بهذا الجسر؁ فتدفع به فى حيز محدود؁ حتى

يحقق المنفعة لمعشر من بنى الإنسان ! ...

وأنت فوق هذا الجسر تنظر يمنية ، فإذا ماء ينبسط هادئا
كأنه بحيرة شاسعة ، وتنظر يسرة ، فتروك المهاوى الصخرية
السحيقة تتساقط فيها شآبيب الماء من ذروة الشلال .

هزى تتأوح الرياح كأنما أنا حقا على ذروة جبل ...
فكنت من وقوفى بهذه اللحظات ، خشية أن تطوح بى الرياح
المتناوحة إلى أعماق الثلج ، فأكون لها صيدا من حيث لا أريد
أن أكون ...

وتناولنا غداءنا فى القطار ، وهو يسيرُ حثيثاً فى مناطق
الشمال ...

الآن تحولت البقاعُ أراضى مُعشوشبةً ، وبطاحاً
مختضلة بالماء ، وأقزاما من شجر أجرد مبثر ... كل شيء
حولنا يُشعر بالوحشة ، كأننا نرتادُ مجاهل محفوفة بالمخاطر .
لا ظلٌ لدار ، بل لا ظلٌ لكوخ . لم يطالعنا وجه إنسان ، ولا
سحنة حيوان ...

نحن نجتاز رقعة قاحلة تسودها البرك والمناقع ، فهى

مملوكة البعوض ، تدفأ أجنته ، ويسرى طينته ... أنكونه
في بلاد الأقزام من الجن ؛ تلك البلاد التي هي عماد الأساطير
في قصص أطفال السويد ، ؟

قيل لي إنها مواطن « اللاب » ... فأين أولئك اللايتون
النُزُّ الميامين ؟ أتراهم قد تحصَّنوا بالشقوق والكهوف والمغارات ؛
لا يُحبون أن تمتد إليهم الأبصار من نوافذ القطار ؟ ...
وقد زاد من عبُوسة هذه البقعة أن الجو مكتمرٌ ،
والسحاب أقتمٌ ، والصقيع على أديم الأرض يتساقط ...
جَدَّ القطار في سيره ، حتى أصبحنا على مبعدة ألف وخمسمائة
كيلومتر من « أستكهلم » فلاحظنا أن البقعة تتغير وتتطور ...
جبالٌ ترهو بقاماتها العالية وتيجانها المرصعة بالثلوج ، وبحيرة
تصاحبنا على مدى الطريق ، وربما هربت من أعيننا في معاطف
الوهاد ، ثم برزت ضاحكةً مستبشرةً من بين الفجج والشعاب
ولا تلبث أن تزايل في بطون السهول والبطاح ، كأنما تلاعبنا
لُعبة الاستخفاء ...

وأمسك القطار عن سيره في محطة « بحور كلدن » حيث يقضي.

أقبلته مستكينا إليها هادىء الأنفاس .

فى تلك الأمسية خرجنا زكب الحافلة إلى فندق فى تلك المنطقة
الخضراء الرائعة التى تكتنفها الجبال من كل جانب ، وإنها لمنطقة
زاخرة بالمتنع لمن يهوى المغامرات من السَّيَّاح ...
هنا ساحة « جولف » لمن ينشُد لعبة « الجولف » ...
وهناك نزهات على الأقدام إلى مواطن الجليد ...
وثمة قبة ترحب بمن يطلب التصعيد فى الجبل ، يرافقه أدلاء
من « اللاب » ، يرتقون معه المراتى ، ويجنبونه مدارح الضلال
ثم يعدون له القهوة على القمة فى جو قارّ تعصف فيه الرياح .
لا مأرب لى فى شىء من هذا كله ، فلا تقع بغير هذا كله ... أن
أمكث فى الفندق أمام النوافذ الفسيحة أستمتع بمراى الطبيعة على
ضوء من شمس الليل ...

راعى فى ذلك الفندق أن نوافذه الواسعة منسقة على هيئة
إطارات اللوحات الكبيرة ، فأنت حين تجلس فى البهو ، وتبجته
بنظرك إلى النافذة ، وترى خلفها سفح الجبل وصفحة البحيرة ،
فكأنك حيال لوحة زيتية عظيمة على الجدار ، تقوم

النافذة فيها مقام الإطار ---

أمام هذه اللوحات الطبيعية الفاتنة، تناولتُ قذبحاً من الشاي،

ولقيات من الكعك ، على نغمات موسيقية وديعة ...

ذلك هو الليلُ يوشكُ أن ينتصف ، وهأنذا أرتدى المعطف

وأندثر بالشَّملة ، وأحكم على رأسي الطرطور ، وألف حول عنقي

اللفاع ، ثم أترك الفندق إلى القطار ، يصافح وجهي ما يتنفس به

الجو من برودة لاسعة ...

وفي القطار حانت منى التفاتة إلى مقياس الحرارة، فإذا المقياس

يسجل درجتين فوق الصفر ...

إنه الشتاء لا ريب فيه ...

مرحبا بك يا شتاء يولية، في منطقة القطب، منطقة انقلاب

الطبيعة المألوفة في بلاد الناس ! ...

اليوم الخامس

رحلتنا القطارية في يومها الخامس، وقد أوغلنا في أصقاع الشمال من بلاد «السويد»، والقطار الآن قابع عن كَثَب من بحيرة «تورنتراسك».

اليوم يومُ رياضة أشبه بالرياضة التي يتمرس بها شباب الكشافة، وإنا مصيدون غداًنا في العراء على ضفة البحيرة، في بقعة خلوية هي موطن صغير من مواطن «اللاب».

خرجنا من القطار، وقد حمل كل منا علبه من الورق تستوعب طعامه وشرابه، وكذلك حمل ما تمس إليه حاجته من معاطف وألعة وشملات... فالجو مقرور، والريح طائشة، فليكن معنا من الدُروع ما نتقي به الأذى.

هنالك على مرفأ البحيرة، كان يرتقب وفودنا زورق بخارى، فأما طريقنا إلى المرفأ فهو مُتَحَدِر شديد التحدر، إنه طريق صخري، أرضه لزوجة ماؤها ضحَضاح؛ وهو ينشق

بين أشجار متكاثفة تعوق السائر ، فلتقل خطانا على حذر ،
ولكابد السير على هذا الطريق ، وأكتافنا محملة بلقائم
الأمته ، وأيدينا مشقة بعلب الطعام .

وما هي إلا أن هجمت علينا أرجال من البعوض البغيض ،
ونحن في المأزق المخوف الذي لانحسد عليه ... أترأه التمس منا
هذه الغيرة ، وأدرك أن أيدينا في شغل عن دفعه ، وأنتا
مجمودون بما فوق أكتافنا وما تحت أقدامنا في الطريق الوعر
الزج ، فطلب الطعن والنزال ، وأيقن أنه قاهرنا لا محالة ؟ ...
مها يكن من أمره ، فلا بد من مكافئته ، فإن لسعة منه خليقة
أن توردنا موارد الهلاك .

وينما نحن في جهاد عنيف ، إذ بدا لنا عن اليسار منظر
رائع يخلب اللب ، منظر شلال هادر ، لاندري من أين
مَبط ؟ هو بجوارنا يتواهب مقهقهأ لعبوا أشبه ما يكون
بطفل يراح ، ولكأنى به ينبجس من بين الصخور العاتية ،
مفلتا منها ليلو ويعبث ، وإنه ليجرى غير مكترث بشيء ،
فتبرز له حجارة مسنونة عابسة لتكفّة عن اللهو والعبث ،

وتمعيده إلى محبسه من أعلى الصخور ، ولكنها لا تملك
له ردًا ...

أهلا بك أيها الشلال العابثُ الجريء ، تتجلى علينا بروعة
منظرِكَ ، فأنسُ بك ، على الرغم مما نحن فيه من محنة
وحالٍ صَنَنكَ .

هذه بُدءةٌ عجيبَةٌ ليومنا الحاضر ؛ وإنما لعنوان صحيح
لنزهة اليوم كله ، نزهة تنسم بطابع المغامرة ، وتنسبط عليها
صبغة طبيعية فطرية ، ليس فيها شيء من رفاهة المدينة وما
يتوافر لها من وسائل الراحة ، وهي تريدنا على أن نكون من
أبناء الطبيعة في هذا اليوم ، نحيا كما كان يحيا في الجبال والأدغال
بطلُّها « طرزان » !

لبثنا نهبط ونهبط في ذلك الطريق المنحدر ، حتى تصيبت
جباهنا عرقا على الرغم من برودة الجو ، وتخلخلت رُكبتنا
من فرط ما عانينا من جهد وصراع .

وبدأ لنا المرقأ ، وعلى مقربة من حافته زورق بخارى
ساذج ، فوقفنا نتنفس أنفسنا الراحة والفرحة بسلامة

الوصول ... مرفأ ليس بالممهد ولا بالمُعَبَّد ليستضيف الزوارق .
ساذجةً أو غير ساذجة ، فلم يكن أماننا إلا أن نحاول الدخول .
إلى الزورق ، قافزين إليه قفزا .

مضى بنا هذا الزورقُ يُمخِّرُ عُبَابَ البحيرة العظيمة
المترامية الأطراف ، تترامى على حفافها البعيدة جبالٌ خُضْرُ
مكَلَّلةٌ بالثلوج ، وأخذ الهواء من حولنا يشتد ، والزورق
يترجرج على الموج ، ولكن فتنة الطبيعة كانت تملأ النفس من
بهجةٍ وأنشراح .

إن الطبيعة هنا تطلّ عليك مختلفَةً الألوان ، فهذه خُضْرَةٌ
وزُرْقَةٌ وياض ، تارة تتكاثف وتارة تَرِق ، حيناً يتميز كل منها
وحيناً يندمج بعضها في بعض ، وكأنما هي عُشَّاق بين فُرْقَةٍ
وتَلَاق !

وانتهى الزورق إلى طرف البحيرة ، فكان علينا أن نقفز
منه قفزاً كما دخلناه أول مرة ، لنعتلى هضبةً عجبية هي الوطن
اللاّئبي المقصود .

بقعة ساذجة جذباء ، وإن كان فيها قليل من عشب ، ونِشَار

من شجر ، وهنا وهناك أكواخ لائتة في وهاد ونجاد ،
حولها الماعز يرعى .

وخرج إلينا جمع من اللائتين في ثياب زرق وحمر ،
يحبوتنا وبين أيديهم — من صنع أيديهم — بضاعة وطنية ...
أحزمة من صوف ... خفاف حُمر ... عصائب زاهية ...
مقاطع للورق من قرن الوعل أو عظمه ... إلى طرائف لا
يزهد في شراء مثلها من يطلب تذكّار الزيارة والطواف .
وخطونا نجوب البقعة ، وتنقّد الأكواخ ، فاسترعى
انتباهي من بينها كوخ شتوي مصنوع من سيقان الشجر ومن
غصونه ، تعلوه طبقة من الطين المخلوط بالعشب ، وهو
حجرة واحد مستديرة ذات باب واحد ، ونوافذ متفرقة ، كل
ما فيه بنيء بأن أصحابه قد أدركهم شيء من التحضّر ، فاتخذوا
المقاعد والمنكآت وبعض الرياش ، وأقاموا فرنا يكاد
يكون عصريا للاستدفاء وطهو الطعام ، وأسدلوا على
النوافذ الزّجاجية لطائف الأستار ، ولكن أثاث الكوخ
يدعو عليه طابع صناعة «اللاب» ...

ثار بنفسى ماعسى أن يثور بنفسك الآن من سؤال عن هؤلاء اللائيين : من يكونون ؟ لقد استخبرتُ أهل الذكر ، فعلتُ أنهم يزيدون على ثلاثين ألفاً في المناطق الشمالية من السويد ، و النرويج ، و فنلندة ، و بلاد الروس ، ، منهم عشرون ألفاً في النرويج ، وحبها ، وعشرة آلاف في السويد ، ... وهم قوم لهم لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم في مجتمعهم الخاص ، ثروتهم الوعول ، مقامها عندهم مقامُ الإبل في بوادى العرب ...

ويمتاز اللائيون بأنهم قصار القامات ، لهم جماجمُ أميلُ إلى السُمرة والاحمرار ، وأصداغ عظامها بارزة ، فأما أصلهم فمختلف فيه ... من قائل إن روسيا ، موطنهم الأصلي ، ومن قائل إنهم سكانُ إسكندناوة ، الأصلاء ، شأنهم فيها شأنُ الهنود الحمر في القارة الأمريكية ...

واللايئون السويديون شتى ! منهم من يحيون حياة الترحل والانتقال ؛ مثلهم كمثل الأعراب القدامى في ، البادية لهم أكواخ بدائية على شكل الخيام ، لكل منها نافذة في سقفا

مفروشة بالعشب والحطب ، إذا حل بهم الشتاء تركوا الجبال ونزلوا إلى البساطح ، حتى إذا جاء الصيف عادوا إلى الجبال المختضو ضرة ، يرون الوُعول السارية . ومنهم آخرون استقر بهم القرار ، يحمون لأنفسهم مساحات من الأرض ، ويستخدمون فيها الأبقار بدلاً من تلك الوُعول ...

وقد أنشأت الحكومة لأولئك اللابيين مدارس خاصة ، فيها يقضى صبيبتهم فترة ما بين السابعة والثالثة عشرة من السن ، فيتعلون إلى جانب العلوم العصرية ما ينفعهم في حياتهم اللاية كترية الوُعول والانتفاع بها على خير الوجوه ، وبين هذا والنشء اللابي المتعلم طائفة تأتي أن تعود إلى أوطانها التي مزحت منها ، مؤثرة أن تعمل في المناجم والسكك الحديدية ونحوها ، فتحيا في السويد ، حياة المواطن السويدي الأصل .

حان وقت الغداء ، ففرقنا جماعات نبحث عن مأوى في هذه البقعة الجرداء التي تعوى فيها الرياح ، لا تقاعد إلا الأحجار وقطاع الأشجار ، ولا ظلال إلا ما تمنحك إياه أقزام من الشجيرات المصوحة ... وألفيتني أندمج في مجموعة أطلق

عليها اسم المجموعة اللاتينية ، أو مجموعة البحر الأبيض ، لأنها
تضم المصرى والأسبانى والفرنسى ، واخترنا لنا مكانا فى ظل
كوخ مهدّم ، أحسب أنه كان يتخذ مخزنا للوقود ، واقترسنا ما
تُنبِت الأرضُ من عشب ، ووضعنا بين أيدينا العُلب التى
حملناها معنا ، وشرعنا نُخرج ما حوت من زاد ، فإذا هو شطائرُ
منوعةٌ من جبن ولحم ، وألوان من رقائق الخبز ، وقبينة من
شراب طيب ... ومرت بنا المضيقة توزع علينا القهوة الساخنة
فى أكواب من ورق ، فوقعنا منّا القهوة أجهل موقع فى هذا
الجو العاصف .

وأحذق بنا الماعز يشغوا مطالباً بحفّته فى الطعام ... فقدّمنا
إليه ورقات من خس كانت تحتويها الشُّطائر ، فجعل يشمها ثم
لوى فمه عنها . فأبدلناه بها بعض الخبز ، فافأ أن ينال منه ،
وكذلك صنع حين بذلنا له اللحم ، وما قىء يحوم حولنا وهو
يلجّ فى صياحه ... ما حيلتنا فى شأن هذا الماعز الذى يظن أننا
من سادته أهل اللأب ، نعرف ماذا يحبّ من طعام ؟ ...
إننا ضيوفه فى هذه البقعة ، وليس هو لنا بضيف ، فلو أنصف

لأننا لنأخذ أن نطعم من لحمه سواء رَشْرَاشاً على سبيل
الحفاوة والتكريم ، بدلا من إزعاجه لنا وإلحاحه علينا بهذا
الغضب والصخب ... حسبك أيها الماعز الأبيض أن تخلص
منا وتخلص منك ، لا علينا ولا عليك ! ...

ولاح لعيني بين الإشتات شخص يلتقط صوراً لجماعاتنا
المتفرقة ... هذا مصوّر الرحلة ، يتفنّن في أن يسجل لنا
صوراً بطريقة يفصحنا بها ، سامحه الله ... إنه من ورائنا في
رحلتنا متدبّس يلتقط ، لا زراه في الجمع بيننا ، ولكنه في
الموقف الغريب يطلع علينا فجأة ، كأنما انشقت عنه الأرض ؛
ليسجل وضعافه الطرافة أو الشذوذ ، وإذا نحن من بعد حين
نختلف إلى معروض الصور في بهو القطار ، نرى صوراً مختلفة
الأوضاع ، وقد اجتمع الرفاق عليها يتفرسون ويتنادرون ...
ما أشبه مصوّر الرحلة في القطار بالصّحن المستطلع في
الأنديّة والمحافل ... المصوّر بالمتكرّر من اللقطات ،
والصحن بالمستطرف من الروايات ، كلاهما يترصد لكل شيء
مثير ، لبفاجيء جمهرة الناس ، بما يجري بين الناس ...

مشينا نطلبُ مرفأَ الزورق البخارى ، لنعود به من حيث
أتينا... وكان البردُ على أشدّه ، والشَّحِبُ تُسَاقِطُ علينا
الردّاذ ، ورَميت ببصرى فى عرض الأفق ، فرأيت دقوسَ
قُرَح ، يتَلَوْنَ ألوانه ، بَيِّدَ أنه بدالِ هذه اللحظة كما لم يَبْدُ
لى من قبل ، إنه لا يزهو فى السماء ، ولكنه مشبوح على سفح
الجبل ، كأنه يتمرغ ، والجبلُ يَفْسَحُ له صدره ؛ كأنه
حَفِيفى به ! ...

ولما ركبنا الزورق البخارى ، وأوشكنا أن نبلغ به الشاطئ ،
فكرت فيما نحن مقبلون عليه ، الطريق الصخرى المتحدرة الزلج
وصديقنا الشلال على الجانب ، وهذا الرذاذ المتساقط من
فوق ... كيف نصعد فى هذا الطريق مترجّلين ؟ لا ريب أن
التصعيد مغامرة ليس لنا بها طاقة ، وهيات أن يكون لنا
فيها أمان !

وما كدت أجهز بمخاوفى ، حتى ساقتنا المضيفة خلفها على
الشاطئ ، وهى تعلن أن هناك وسيلةً أخرى معدة للتصعيد غير
السعى على الأقدام ... ووقع بصرى على جرّارة تمائله

جرات الحرث في الريف ، لها شكل دبابه حربية ، وقد شد إليها بسلسلة ضخمة لوح خشبي عتي . له حواجز من قوائم خشبية تصل بينها حبال . لم أر لهذا اللوح عجلا يتحرك عليها ، ولكنه معد ليترك انزلاقا على الطين في طريق وعر غير الطريق الذي انحدرنا عليه حين جئنا في الصباح .

ازدحم بنا اللوح ونحن عليه وقوف ، وتحركت الجرارة تشدنا صاعدين ، ولك أن تتمثل نفسك في هذا المشهد الفذ ، أو هذا الملعب العجيب ، وقد زج بك على لوح يتصعد في مسالك مشتبك الشجر ، عسير المطلع ، فأنت بين تمايل وتمايل وتضاغط وتساقط ، لا تملك لنفسك من سكينه ولا لجسدك من قرار .

وبينما نحن في هذه المحنة ، إذ برقت لنا آلة التصوير خلال الخنازل ، ومن خلفها المصور الماكر متحفز يسترق إلينا النظر ، وهو يوارى ما يتحلى به فمه من ابتسامة دهش . !

وطالنا وجه القطار ، فوثبنا إليه من اللوح وثبا ، وقد

خيل إلينا أن تلك الدبابة اللعينة تمتد وراءنا تحاول اللحاق بنا
قبل أن نُفلت ! ...

وأوينا إلى مخاض عنا في القطار نتنفس الصُّعداء ،
وتتناقل الضُّحكات من هذه المغامرة التي مارسنا فيها لونا من
حياة الطبيعة الفطرية .

الآن نحمد لهذا اللون أننا استمتعنا بما فيه من جِدَّة ،
وتذوقنا ما له من طرافة ، ولكتنا نحمدك بعد أن عدنا
من المغامرة في أمن وسلام ! ...

اليوم السادس

لم أكد أفتح عيني، وأنظر في ساعتي ، حتى سمعت نقرات خفياً على الباب ، يتبعها صوت قائل : صباح الخير ... استيقظوا يا سادة ... الساعة منتصف الثامنة .

لقد ظهر مرة أخرى هذا « المُسَحَّر » ، الظريف الذي يوقظ النُوم في القطار ، إنه هو و « المُسَحَّر » الشرق في شهر رمضان ، صُنوان ، هذا يوقظ للسحور بضرب الطبل والإنشاد ، وذلك يوقظ للفقير بصوته العذب ونقراته الخفافة .

وما أسرع أن تأهبنا لنخرج بعد قليل ...

هذا يومنا السادس في رحلة قطار الشمس ، وهو اليوم المخصّص لزيارة « نارفيك » إحدى مدن « النرويج » الساحلية في أقصى الشمال ، ولقد دخل بنا القطار أرض « النرويج » في الصباح المبكر ، وهأنذا الآن بجوار النافذة أنطلق ، فإذا

الطبيعة قد اكتمل لها جلال وبهاء وفتنة ، ولكن في إطار من وحشة ورهبة ، فكل ما تقع عليه العين رائع أخذ ، بيد أنه هائل مخوف .

سور جبلى يمر القطار على حافاته ، ومن تحته خليج بعيد الغور ، يتسع حتى تحسبه بحيرة ، ثم يضيق حتى تظنه قناة ، ومن حوله أسوار جبلية تطفل عليها بعض النباتات ، وراح ينمو في جراحة ، ومن وراء ذلك غابات شواسع لا يدرك مداها الطرف ، وبين الفينة والفينة يلتصع شلال ضخم ترى هيئته وتوابعه ولا تسمع له من هدير ، وفوق ذلك كله سماء تتخلل فيها أسراب الغمام الثقال .

إني لا تطلع حوالى ، وكأني أهرب بأنظارى من أن تنحدر لتقع في هذه المهاوى السحيقة التى يمر القطار على شفيرها الدقيق ... فافرطت منى نظرة إليها إلا وضعت يدي على قلبي خشية أن يزيغ ، وفي كل لحظة أوجس خيفة من أن ينحرف القطار إصبعا فيلقى بنا إلى الحضيض ، حيث تمزقنا هذه الصخور المسنونة كأنها أبواب الوحش وبرائن السباع .

كيف لا يستبدُّ بي القَلَقُ ، والقطارُ على الحافة ، والمَهْوَى
بعيد ، والصخور فاعرة الأفواه للالْتِقَام ... وما هى إلا أن
تحدث الكارثة ، حتى يسود الصمت والهدوء ، وإذا النشرة
القصيرة التالية يطالعها القوم على متون الصُّحُف . سقط
قطار الشمس فى بقعة تدنو من إحدى المدن الساحلية . فأودت
السقطه بكل من فيه من الركاب ، ثم تعود الحياة سيرتها الأولى ،
وإذا القطار المتحطم الطيب الذكر يحل محله قطار شمسٍ جديد
حاملًا على مقاعده أفواجا من السَّيَّاح الجدد ، يرون بالهاوية
الضارية التى أكلت أسلافهم منذ قليل ، فيتمصصون الشفاه أو
يتبادلون البسمات !

نجونا من عالم المهاوى والصخور ، وظهرت لنا قرى زروحية
لطاف ، ثم تراءت معالم « نارفيك » . مدينة ساحلية خضراء ،
تتحف بها غابة كبيرة ، وأمامها الخليج العظيم المشهور بعمقه المسمى
« فيورد » ، أو بالأحرى « فيورد أوقن » .

وأدى بنا القطار إلى ميناء المدينة ، ذلك الميناء الذى يبدو
كأنما شيدته الطبيعة فأحسنَت تهنيده فى بقعة لها من نفسها حماية

وقد ألفينا شواطئ المدينة مجهزة بأحدث الآلات والمنشآت
العصرية لإنتاج الحديد ، « فالمدينة » - فيما يقول أهلها - مدينة
بتقدمها وعظمتها لحديد « السويد » ؛ إذ هي موطن مهم من مواطن
تصديره إلى شتى البقاع .

هنالك تركنا القطار ، واستوينا سيارتنا حافلة أوصلتنا إلى
رصيف مراكب للتعدية ، فاحتوانا نحن والسيارة الحافلة ، وعبر
بنا جميعا هذا « الفيورد » العظيم . ثم خرجنا من مركب التعدية
لنقلنا السيارة الحافلة متنزهين بها في صحبة الخليج ، مُصعدين في
جبل مُشرف عليه .

طال بنا الطريق ، ولكن المرتقى سهل ، والبقعة مؤنسة ،
المراعى الخضراء من حيثما ننظر ، والخليج يستشرف لنا كأنما
يتجدد كلما امتد بنا السير ، والجبال النائمة متشاحنة أمامنا تكسو
رءوسها الثلوج ، كأنها جلال المشيب ، والشلالات لامعة لأعينه
كحیوظ من الفضة تنساب على السفوح ، وفي جهات عالية تترأى
بحيرات كأنها لآلئ تزين صدور الجبال .

وكان القائمون على الرحلة قد زودوا ركاب قطار الشمس في

• نارفيك ، ثلاث من حسان « النرويج » لينهض بمهمة الترجمة والتعريف ، وهن ذات أدب جم . وإن كن يتمتعن بقسط كبير من الرقة والظرف ، والقدرة على إشاعة الطرب والمراح ، فما لبثت السيارة الحافلة أن استحالت بفضلهن ملهى أنيسا لم يعوزه إلا المعازف ، ولا غرو ألا يشعر الركب بمضى ساعة أو أكثر في التصعيد على هذا الطريق ... !

شدا ما أمتنى جمال هذا « الفيورد » الأخضر ، كأنه نهر مزدهر ، وإنهم في « النرويج » يطلقون هذا الاسم على كل خليج بحرى يقتحم الأرض ، ويحترق منها المراحل الطوال ، فكان المحيط الأعظم يتدسس في خفايا البلاد ... وأمثال هذا الخليج كثيرة على شواطئ « النرويج » ، وهى تتفرع فروعاً شتى ، متغلغلة في مناطق صخرية عنيدة ، أو متسللة بين جبال ندية خضر .

وقفت بنا السيارة الحافلة في شبه قمة يقوم عليها فندق رائع الموقع : « الفيورد » العظيم من تحته ، والجبال بلوجها وخضرتها وغاباتها حوالى البيه ، وإنه حقاً لوح نادر من لوحات الطبيعة الفاتنة

هذا الفندق جديد البناء ، شيد حديثاً على أنقاض فندق
هدمه ، الألمان ، في غضون الحرب العالمية الماضية ، وما أعجب
هؤلاء الألمان إذ يتخذون لوقائع الحديد والنار مثل هذا الموقع
الساحر الذى يوحى بالآمن والطمأنينة والسلام ! ...
تناولنا غداءنا فى الفندق ، وترشفنا هنالك أقداح القهوة
ثم رجعنا إلى « نارفيك » ، نجول بأقدامنا فى تلك المدينة التى لم
تتخلص بعد من آثار الحرب ، وإن كانت يد التعمير والتجميل
تعمل فيها لا تهدأ

حقاً إن مستوى الحياة فى « النرويج » ، مستوى طيب ، ولكن
عليه طابع التقشف ، فخطته من للترف غير كبير .
عادت بنا الحافلة إلى القطار ، فارتدّ بنا إلى « السويد » ،
مزمعاً أن يبيت ليلى فى مدينة من مدنها الصناعية ذات اشتهار ...

اليوم السابع

ذلك هو القطار مستقرّ بنا في مدينة «كبرونا» تلك المدينة
العظيمة التي هي موطن لنا جَم الحديد . وكان علينا نحن — سكان
قطار الشمس — في ليلة يومنا السابع من أيام الرحلة ، أن نختارَ
بين ثلاث :

فإما كان مَبِيتُنَا في القطار ، منتظرين إلى الصبح ، لنجول
جولة تبين بها معالم المدينة ، ونجتل ما فيها من آثار .
وإما خرجنا كذلك في الصباح ، لنقضى وقتنا في نزهة إلى «الرابدز»
على متن قارب بخاريّ يكابد تيّار النهر .
ولما كان خروجنا منذ هذه العشية ، نطلبُ الصيد في بحيرة
يجوار موطن لايتي عريق .

واختلفت أهواء الرّفاق ، بين هذه الخُطَط الثلاث ،
فأفترقنا ثلاث مجموعاتٍ ، لكل منها طريق .
واختارنا نحن الخُطّة الأولى ، فهي أيسرُ علينا وأحبُّ إلينا

من كلتا الخططين الآخرين؛ إذ كانتا مفاصلي لا قبل لنا بما
تخصنيانه من مشقة ونصب .

أقلستنا السيارة الحافلة في الصباح تجوب بنا أنحاء المدينة
فرأينا مناجم الحديد فسيحة الأرجاء متجهمة ، ولكن هذه
المدينة الصناعية التي يعمرها العمال تبدو مشرقة وضاحية
الأشجار تزين الطرق ، والنبات متناثرة ، والحدائق كثيرة ،
والمنازل العمالية منسقة عليها رونق ، وثمة هضبة نعلوها
فتشرف بنا على بحيرة جميلة تتخيل حوالها أشباح الجبال عالية
تغطيها الثلوج .

واستجبنا لدعوة كريمة من أستاذة سويدية أن نزور بيتها
ونتناول معها قهوا من القهوة ، وهي تسكن مع زوجها في مغنى
رشيق ، الطبقة الدنيا منه مثابة للثحف ، والطبقة العليا للبقام .
هذه الأستاذة أمرها عجيب ، فهي معلّمة في مدرسة
لايئة ، وهي فنانة تهوى الرسم والتصوير ، وهي فوق ذلك كله
تتشقى عشيرة اللاب ، ولذلك وقفت جانبا كبيرا من وقتها
على دراسة حياتهم في مجتمعهم الخاص .

حللنا دار الأستاذة الفنانة ، غفمت لاستقبالنا في ثياب لائسة
 وطنية ... سيدة قصيرة القامة ، حمراء البشرة ، مشرقة الوجه ،
 على ثغزها ابتسامة لا تبرح ، وكأنها لفرط شغفها بعشرة «اللاب
 وحرصها على اتخاذ الزمى اللابى الوطنى ، وما أفادت من خبرة
 بهذه العشيرة ، قد اكتسبت سخنة هؤلاء اللابيين الأصلاء ،
 فلاحت بينها وبينهم مشاهة كثيرة ، بل أصبحت منهم فى
 الصميم .

وقامت على خدمتنا صبيئة وسيمة الحيا ، ترتدى ثياب
 «اللاب» أيضا ، وأخبرتنا ربة الدار بأن هذه الصبية لاية
 معرقة ، ولكنها متحضرة فراعنى أن سخنتها سويدية على الرغم
 مما يجرى فى عروقها من دم «اللاب» ، وما يكسوها من زيمهم
 الوطنى .

واستبدت فى العجب لسيدة سويدية ، لا تكاد تراها حتى تحكم
 بأنها من اللابيين ، وصية لاية لو طلب إليك أن تقسم على
 أنها سويدية لأقسمت !

ما أعظم أثر النفس فى تقويم الأجساد والسحن ، فهذه السيدة

التي هويتُ عشيرة « اللاب » ، وأرادت أن تكون منها وإن لم تكن ، تراها قد انقلبت سحنتها فإذا هي كما أرادت أن تكون ، وتلك الصبيةُ اللالاية التي هفتُ روحها إلى أن تكون سودبية متحضرة لم يعز عليها أن تنالَ مطمحَ الروح ..

حقاً إن النفس لقادرة على أن تصنع الأعاجيب ، وتأتى بالمعجزات .

نهضنا نجوبُ الدار في صحبة الأستاذة الفنانة ، فألفينا الطُرف اللطاف في كل ركن وعلى كل جدار ... طرف تمثل حياة اللابين في مختلف مظاهرها ، فتلك أوائهم وخارجهم وتمايمهم ومنسوجاتهم وسائر ما لهم من أثاث ومتاع .

وانبرت الأستاذة تشرح لنا كل طريقة تقع عليها العين ، وتحدث إلينا حديث أصحابها اللابين ، فوعت أسماعنا محاضرة مفيدة مستفيضة . كأننا في معهد درس وقاعة محاضرات ، وإن خلا الجوُّ من السامة التي يشعر بها من يجلس بين أيدي المدرسين والمحاضرين ! ...

هؤلاء اللابيون كما أسلفت عليك من أقدم سكان « السويد »

كانوا وثنيين في عهد غبر ، لهم جبالهم المقدسة التي يزلفون إليها
القرابين . ولهم آلهة ينحتونها على أشكال بدائية من الحجر ، وهم
الآن على دين المسيح ، في كنائس النصارى يتعبدون ، ولكن
لهم في مناطقهم كنائسهم اللاية الخاصة .

وقد نبغ من اللاتيين المتحضرين نفر معدودون ، من بينهم
فنان كان رساما وكاتبا وفيلسوفاً في آن ... وقد اختص برسم
الوعول قطعاناً وفرادي ، وحذق تصريف الألوان أيما حذق ،
إذا رأيت رسمه بجماعات الوعول فكأنك ترى أفواجا بشرية في
طريق الهجرة ، وإذا شهدت الرسم من بعيد فكأنك تشهد أمراً
من العمل تدب على مهاد الأرض ...

هذا الفنان لم ينهج في رسومه نهج فنان قبله ، ولم ينسج على
منوال غيره ، فإما كان له من معلم يهديه ، وإنما دفعته الموهبة إلى
الخروج ، بفرج بنفسه ، يعلم نفسه ، وإذا هو صاحب تجديد وابتكار .
مضينا بعد الظهر نزور بقعة تاريخية كانت مألفاً لقوم
« اللاب » فيما مضى ، ولم يبق منها اليوم إلا كنيسة لاية أثرية .
وقد رأى السويديون أن يحبوا ذكرى هذه البقعة ، فأقاموا

بجوار الكنيسة مُتحفاً حياً من متاحف الهواء الطلق، تمثل فيه حياة السويديين القديمة وحياة اللاب . . وهذا المتحف الخي. رقعة مسوّرة تحوى بعض الأبنية الأثرية، ومن هذه الأبنية مسكن قديم جعلوه الآن أشبه بفندق أو خان، فيه حُجَر للمبيت بأجر قليل ومن طلب الطعام فيه وجدّه، وذلك المبنى قديم متغلغل في القدم. طريف في كيانه الخشبي، تنسّق له أسباب الراحة على النحو العصري، وفيه وسائل التدفئة وأدوات الأكل ومُعدّات النوم وقد ترشّفنا هنالك أقداح القهوة، مشفوعة بشذرات من كعك لذيذ المذاق .

ونشطنا إلى التفرّج في غير هذا الفندق أو هذا الخان، فتوخينا مبنى آخر ليس بأحدث منه عهداً ولا أقل طرافة، بل يزيد عليه أنه باق على حاله، لم تمسه يد الحضارة العصرية، وهو يمثل داراً ريفية لرجل من سُرّة الريف السويديين الأقدمين، من حل بها فكأنما انتقل إلى تلك العُهود الخالية، يشارك أهلها حياتهم وما يُزاولون من عيش، يأكل في أوعيتهم النحاسية الساذجة، وينام في أسرّتهم التي تشبه صناديق كبيرة عليها أستارٌ غلاظٌ،

ويتدفأ بجوار مدفأتهم الضخمة البدائية ، ويرى كيف يستعملون
فرن الخبز ، وكيف يطهون الطعام ، وماذا كان لهم من آلة
الصيد وعدة الخيل ... فلقد توهمت — وأنا في جوف تلك
الدار — أنى أعيش في ضيافة رجل من سراة الريف في العهود
السوآلف ، أنعم بسداجة هائلة !

ولما خرجنا إلى الفناء وغابت عنا معالم تلك الدار، وانبسطن
بين أيدينا بعض الصحف اليومية بعنواناتها التي تحمل مشكلات
السياسة وتطاحن الزعماء ، أيقنت أننا قد عدنا سريعا إلى حياتنا
العصرية ، نعاني حرب الأعصاب ، وثرثرة الصحف ، قرحمنا
على تلك الحياة البريئة الساذجة التي قضيناها في ضيافة ذلك السري
الريفي القديم !

قصداًنا بعد ذلك إلى منزل لآبى شتوى ، إنه كبيره من
المنازل اللائيّة خشبي مستدير عليه طباق من الطين المخلوط بالعشب
وهو في داخله كشأنه في أمسه البعيد ، في وسطه نارٌ توقد للتدفئة
وفي سقفه طاق هو النافذة اليتيمة في المنزل كله ، ولا مقعد ولا
متكأ ولا سرير ، كل ما هنالك للنوم أغصان من الشجر جافّة

تَبْسِطُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَيُّ حَشِيَّةٍ أَوْ وَسَادَةٍ هَذِهِ الَّتِي تَقْضِ الْمَضْجِعَ ، وَتَبْعَثُ الْأَرْقَ ؟

أَمَّا الْمَنْزَلُ الصِّفِيُّ لِعَشِيرَةِ «اللاب» ، فَهُوَ خِيْمَةٌ أَوْ شِبْهُ خِيْمَةٍ ، حَوْلَهَا مِيسَاجٌ يَمْنَعُ الْحَيَوَانَ السَّارِبَ أَنْ يَقْتَحِمَ ، وَهَذَا الْمَنْزَلُ أَظْهَرَ سِدَاجَةً وَأَقْلَ تَحْضُرًا مِنْ صَنْوَةِ الْمَنْزَلِ الشَّتْوِيِّ .

وَرَأَيْتُ عَنْ كَتِّبٍ مِنْ هَاتَيْنِ الدَّارَيْنِ بَعْضَ ظِلَّاتٍ مَرْسَعَةٍ ، تَقُومُ كُلُّ مَهْلًا عَلَى عَمُودٍ ، يَحْتَزْنُونَ فِي أَعْلَاهَا . أَشْتَاتُ الْمُتَوَنُّةِ ، وَمَا أَحْقَبُهَا بِأَنْ تَسْمَى «الصَّوَامِعُ الْهَوَائِيَّةُ» ، كَصَوَامِعِ الْقَمْحِ وَالذَّرَةِ فِي رِبْعِنَا الْمَصْرِيِّ ، وَاللَّائِيُونِ يَتَخَذُونَ هَذِهِ الظِّلَّاتِ فِي الْعَابَاتِ ، لِيَصِيبُوا مِنْهَا زَادَهُمْ وَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ . وَقَدْ أَقَامُوهَا عَلَى الْأَعْمِدَةِ لِكَيْ يَحْمَوْهَا مِنْ عَدَوَانِ الْحَيَوَانِ . وَثُمَّ خِيْمَةٌ خَلِيقَةٌ أَنْ تَسْمَى : مَأْوَى الْأَرْبَابِ ، فَقَدْ ضَمِنَتْ آلِهَةً «اللاب» ، فِي عَصَرِهِمُ الْوَكْتَنِيِّ ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ الْمَسِيحِ ، وَمَا هَذِهِ الْآلِهَةُ إِلَّا أَحْجَارٌ صَمٌّ غُلْفٌ لَا تَتَلَقَّى لَهَا سَمَاتٌ ، وَلَا تَمَيِّزُ بِهَا أَشْكَالٌ ؛ لِأَنَّهُمْ تُصَبُّ مِنَ الْغَنِّ حِطًّا ذَلًّا أَوْ كَثْرًا .

وغير بعيد من هذه الخيمة قوارب صغار لها أغطية كالصناديق ، وكانت هذه القوارب تستخدم لنقل الأثاث وما إليه ، تجرّها العول على أرض الجليد .

وفي هذه المنطقة اللابية الأثرية ، أقامت « السويد » مدارسها الخاصة بأبناء « اللاب » ، فيها يتعلمون ، ومنها يعودون إلى مواطنهم الأصلية في مناطق متفرقة ، إلا قليلاً منهم تسبيلهم الحضارة العصرية ، وتفتنهم عن حياة قومهم « اللاب » .

فرغنا من زيارتنا لذلك المتحف اللابي الحيّ ، ورجعنا إلى قطارنا ناوى إليه ، فالتقينا بمن اختاروا غير خططنا في التنزه والارتحال .

فأما الذين ذهبوا منهم إلى « الرابدر » فقد تحدّثوا إلينا أنهم قضوا قرابة خمس ساعات في قارب بخارى ساذج يقوده نوتيون خبراء ، قارب على دكاك خشبية ليست لها مساند ولا ظهور ، وجرى بهم القارب في نهر يفاجهم تباره في الفينة بعد الفينة ، فيعمل النوتيون على أن يحكموا زمام القارب ، حتى لا يعثّر به التيار ، والركب يناوشهم رشاش الموج بمنة

ويسرة ، والريح تُميد بأجسامهم فيتسككون ويتساندون ، وهم يتقون وطأة البرد بالأردية الثقالة ، حتى يلقى بهم الموج بعد لآى فى أرض جرداء مقفرة ليس بها أنيس ! .

وأما الذين آثروا مغامرة الصيد ، فإنهم خرجوا إليها مع الليل ، يحتذون النعال الغلاظ ، ويحملون المعاطف والألفعة الواقية من وقع المطر واشتداد الريح ، وجعلوا يسرون ساعات فى مجاهل من غابات وبطاح تنخللها المناقعُ ، والأرض من تحتهم معشوشبة لزجة مشبَّعة بالماء ، والجوُ حواليتهم يُعربد فيه زفيفُ الهواء ... وأفضى بهم المسير إلى قرية صغيرة من قرى « اللاب » ، فأوتهم تلك الدار اللاية المعهودة ذات الحجرة المستديرة والطاقُ النافذ من السقف ، وجلسوا هنالك للراحة بعض وقت ، يتسلَّغون بشيء من الطعام ، ويترشَّفون أقداح القهوة ، ويستدفئون بالنَّار الموقدة ، وقد تجمعوا أمامها مقرورين على الأرض الصُّلَّة أو على حشيرة من يابس الأغصان ، وجوههم تكاد تلتفحها ألسنة النار ، وظهورهم يعث بها وخزُّ البرد القارس ، فكل منهم كأنما هو

نصفان : نصف فى خط الاستواء ، ونصف على رأس القطب ،
فما فى وسع النصارى أن تشيعَ دقها فى شتى أرجاء الدار !...
وبيناهم كذلك إذ أقبل عليهم بعوض مخيف كالفراس المبتوث ،
ينهل من دمائهم ما ساغ له أن ينهل ، وقيل لهم إن النهر من
مكانهم قريب : فن شاء أن يصطاد فيه خطا إليه ، والساعة وقتئذ
قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، أعنى هذا الليل النهارى
العجيب الذى لا يخب فى ضوء الشمس ، فلم يهش أحد منهم
للخروج من أجل الحصول على صيد النهر ، وكيف لهم أن
بصطادوا وقد أصبحوا فى حالهم تلك هم السمك فى الجبال
والشباك ؟ فليسمعوا كـ أوفليشفوا — بنومة ساعة أو بعض
ساعة ، يحرسهم ذلك البعوض الضامى إلى ما يجرى فى عروقهم
من دماء ، وليثوبوا إلينا راضين من الغيمة بالإياب !...

قادة الرحلة — رحلة قطار الشمس — لا يتوانون فى توفير
ألوان المتع للراكبين المختلفين أهواء ومشارب ، وهم يدترون من
بين التزهات ما هو ثقيل شاق ، إذ يعلون أن بين الرفاق من
تستهويهم المغامرة وركوب الأخطار ، فهم يطلبونها طلبا ،

ويسعون إليها سعيًا ، ولا يتغنون بها بدلا ...
هؤلاء لا يفتنّون بمرأى كوخ تتمثل فيه حياة قوم «اللاب» .
وإنما يأبون إلا أن يغرّزوا الأقدام في أرض لا يئى لزجة
معشوشة ، ويخصوا منافع لاية بنظائر حولها بعوص لايّ
قارص ، ويدخلوا أكواخ لاية في جو لاسع وريح عاصف ،
ويصطلوا بنار لاية جالسين القرفصاء ، وباموا على فراش
لايّ شائك من أغصان الشجر !

وغير هؤلاء جمع لا يرضيهم ولا يشفي غليلهم أن يشهدوا
من بعيد تيّار الموج المتدفع يتلعب بالقوارب ، فلا بد لهم أن
يغتالوا من هذه القوارب متونها ، ويترنحوا على دكاكها ، حتى تلقى
بهم الأمواج إلى أرض مقفرة لكي يستشعروا رهة الماء .
ووحشة البقاع الجرداء .. !

أولئك وهؤلاء يملكهم حبّ المغامرة ، فهم يستمرّثون
متعتهم في احتمال المشقة ومكابدة العناء ! ... وإن قادة الرحلة
ليفطون إلى ذلك كله في أنفُس الناس ، فيتيحون لكل امرئ
من رفقة السفر أن يبلغ هواه ويدرك مناداه ... !

اليوم الثامن

طَرَقَ «المُسَحَّر» الظريفُ بابنا، وهو يترنم بحملته
المعهودة :

صاح الخير ... استبقظوا يا سادة ... الفطور
مُسدّد.

وقفزت من السرير ، وقد تذكّرت أن برّنامَج هذا
اليوم الثامن الأخير من أيام رحلة قطار الشمس ، يقتضينا أن
نصحو مبكرين : لبطالعتنا النهرُ الذي يحمل كتل الخشب
على مَثنه ، فقد أفرد القوم هذا اليومَ لزيارة موطن الخشب ،
نعرف منه . كيف يحتمله النهر من حيث يُقتلَع وكيف يفرز .
في نهاية المرحلة ، وكيف يوزع على أصحابه ، وكيف يجهز بعد ذلك
أشكالا مختلفة في مناشيرَ يسمونها : طواحين النشر ؟

هذا حقا يومُ الخشب ... وإن الخشب ليجلب من

غابات عظيمة في ذلك الإقليم ، فلاغرو أن نرى المناشير ترُصعُ
البقعة أدناها وأقصاها .

بصُرْتُ من النافذة بكسل الخشب تغطي صمحةَ النهر ،
فإن العمل فيه يكاد يكون مقصوراً على نقل تلك الكتل ،
وكانما هو لها مطيةٌ ذلول لا تكل ولا تسأم ، على أنه ساحر
المنظر ، لم يشوه جماله ما يحمل ... وما له لا يصبر على أحماله
وهي نتاجه من الغابة العظيمة حوله ، فليفسح لها حضنه كما يفسح
الآبُ صدره لبنيه ، وليقلها إلى حيث تؤدي مهمة في الحياة ، كما
هو شأن كل ما في الحياة من حيوان ونبات وجماد ...

ما أروعك أيها النهر ، وأنت تشق الفجاجَ المتحدرة على
جانبيك ، وهي ترهوك مخضرتها الناضرة ، كأنما كسّأها
سائطٌ من سممل ،

صاح بنا مضخم الصوت يقول
بعد قليل نقفُ عند الشلال .

وما لبثنا أن سمعنا لدَفْقِ الماء هديرأ يعلو على ضجيج
القطار وهو يسير ، وألفينا القطار يعُرُ حسراً على الشلال ،

ثم وقف في منتصف الجسر ، ليمتيع الركب هنيئة بهذا المنظر الطبيعي الأخاذ .

إن الشلال يبدو من حَيِّية ، تحيط به ألفافُ الغابة وكأنه من الغابة نفسها ينبُوع ، وإنك لترى ماءه ندىء ندىء يجري هادىء الجِرية ، حتى إذا أصبح في البقعة التى يقوم فوقها القطار وجدته قد هَاج وهَاج ، وأرغى وأزبد ، وكأنما قد أصابته جِمة ، فراح يتلاعب على الصخور هاربا إلى القرار ، ثم إذا هو ينسبط صفحه من رغو أبيض مسترسل فى لهُو ومعاشة ؛ كأنه يقهقه حتى سطفو عليه زبد .

استأنف القطار مسيره حتى بلغَ محطه للتوليد الكهربى على شلالٍ آخر ، بيد أن القوم لم يُرْخُوا له العنان كشأن ذلك الشلال الذى فارقه منذ وقت ، وإنما أرادوا الانتفاع به ، فسيطروا عليه ، وفرصوا له نظاما فى القفز والجريان ، فأذعن وأطاع .

هناك خرجنا من القطار ، لتقلنا السيارة الحافلة ، فعبرت بنا جسرا عظيما ، ثم أخذت تصعد فى الغابة ، ونحن دائما من النهر على قُرب ، يبدو لنا من خلال الشَّجَر ، ويطلنا محبته حين .

تجتاز الحقول والسهول .

ووزعت علينا المضيئة الأنيسة كراتٍ بها ألحان موسيقى ،
معلنة فترة إنشاد وترنيم . وكأنها تريد بذلك أن تشعشع في مفاتيح
الطبيعة روائع الأنعام .

وأشرفنا في بعض الطريق على منفسح من النهر كأنه في هيئته
بحرٌ مُزبد . أشعة الشمس تلمع عليه كأنها سُمَط اللؤلؤ ،
والغابات تتعالى على ضفتيه ، ملقبة بظلالها حينئذ إليه ، والمروج
على حافته تزينا من الأزاهير ألوان ، فسرحت بصرى مسحورا بهذا
الموقع الذي تغنى به الشعراء والكتاب ، وكان لهم مشاروحي وإلهام .
وضقتُ ذرعا بهذه الأغاني والأناشيد ، ترتفع بها أصوات
الرفاق في السيارة الحافلة ، وكدت أناشدهؤلاء الرفاق أن يصمتوا ،
فما أحقّ هذه الساعة بأن تكون ساعة تعبد وصلاة ، ساعة
تأمل ومناجاة ... ذلك محرابُ الجبال أمام العيون ، فلننهل من
روحانيته ما استطعنا أن ننهل ، حتى تخفّر نفوسنا طمأينة
وصفاء ... !

وقفتُ بنا السيارة الحافلة عند فندق ، والساعة منتصف

الحادية عشرة قبل الظهر، وصاحت بنا المضيضة تدعونا إلى طعام الغداء ... أفتحسبنا هذه المضيضة الأنيسة مخللة تحشوها رقبنا تشاء، بما تشاء؟ فلاضرب عن هذا الغداء الذى دعنى إليه فمس دعمت، وليستجب لها من يستجيب .

مضيت أجول حول البلدة جولةً، فاستبان لى أها فى مرتفع تنظر منه إلى النهر، وأنها عامرة بالخصرة، زاخرة بالنانات، كأنما هى حديقة معاقمة، وليس بها من الشوارع إلا شارع واحد صفت فيه الدور والفنادق والحوانيت عن يمين وشمال .

وعدت إلى الرفاق الذين آثروا البقاء فى الفندق ليصيواغداء قبل أن ينتصف النهار، فإذا هم قد فرغوا من طعامهم منذ هنية، وإذا هم قد دعتم المضيضة إلى أن يشربوا القهوة على ربوة يقوم فى ركن منها مشرب جميل، فصعدت معهم أتملى روعة تلك الربوة التى يكسوها مرج مزهر، يتمنى المرء أن يفتشه بعض وقت، ليسعد بنومة طيبة على بساطه الوثير .

صدر إلينا أمر المضيضة بأن نفارق هذا الفردوس المرموق، فانطلقت بنا السيارة الحافلة تجتاز المراعى والحقول، وإذا

الخيول فيها سائبة تهرح ، ما تكاد تشهدنا نمر بها حتى تعدو
وراءنا كأنما تشترك مع سيارتنا في سباق . فأما الأبقار الشمان
الناصعة البياض فكانت تبعثُ إلينا وإلى الخيول من ورائنا
نظرات كلها تؤدة وجلال ، ثم لا تلبث أن تنكفي على العشب
غير لا وية على شيء !

وأخذت أبحارُنا أعواداً من الخشب ، مُقَامَةً كهيئة المحامل ،
عليها من أضغاث البرسيم كومات عالية ، فالسويدي يعلم أنه الآن في
موسم الزرع والحصاد ، وفصل الدفء والإشراق ، لازم عليه أن
يزرع وأن يحصد ، وأن يدخر من هذا البرسيم علوفة لما شئته في
إبان البرد والثلج والإظلام

وتابعت السيارة الحافلة انطلاقها تنهب الطريق ، وما زال النهر
يلوح لنا من بين الشجر ، والمرُوجُ على شاطئيه تترامى ، والدور
الريفية تترامى لنا بشرفات لا تكاد تخلو إحداها من أصص تنبرج
فيها الرياحين ... !

وبعد لأي وقفت بنا السيارة عند النهر ، في مكان قريب من

الصب

هنا يقول النهر لمن وقفوا على شاطئه ، من أهل التجارة والصناعة :

دونكم الخشب الذى احتملته إليكم ، فسلموه ...
فلا يلبث هؤلاء أن ينشطوا للعمل ، ولا يلبث النهر أن
يودعهم بابتسامة عذبة صافية ، ثم يدفع نحو البحر ليندمج فيه ،
وقد تخفف من أحماله التى كانت تضنيه .
مثلنا أمام النهر نتملاه ، فألفينا الخشب يغطيه من مختلف
مناحيه ، حتى لقد أعيانا أن نرى الماء بين هذا السطح الخشبي العائم
المتلاحم ، بل لقد خيل إلينا أننا قادرون على أن نعبث النهر بأقدامنا
فى غير خشية ولا حرج .

على أن هنالك جسرا من الخشب مقاما على قوارب أو ما يشبه
القوارب ، ومن هذا الجسر تنفرع جسور صغار أخر ، ولكنها
على شاكلته ، وحول هذه الجسور المتصل بعضها ببعض ، والمفضى
معضها إلى بعض ، والمتغلغلة إلى مسافة بعيدة من النهر ، نجد الخشب
ساحا يدفعه العمال بمزاريقهم ليجعه وتسليمه إلى ذويه .
والنهر فى هذه المنطقة واسع العرض ، حتى ليدو كأنه المحيط

الاعظم ، مداه يفوت النظر ، وهو مقسم أقساما ظاهرة المعالم تبلغ المائة ، ولكل مشغل يجلب الخشب قسم خاص به ، وليس للنهر وراء هذه الأقسام المنكسرة لأصحابها إلا تمر صغير يستأثر به لنفسه ...

ومن عجب أن الخشب يُرمى جملة في النهر بادیء بدء مختلطا بعضه ببعض ، وبعد رحلته الطويلة يسارع إليه ذوؤه ، فيتسلم كل منهم ما هو له ، آمنا أن يفقد من خشبه شيئا ، غير طامع أن يأخذ من خشب غيره شيئا ، فاسكل تاجر علامة خاصة محصورة على الخشب السابح وقد وزعت علينا ورقة تحمل هذه العلامات التي تشبه الخط الهير وغلقي أو خط الاختزال .

تركنا ميناء الخشب ، إن صح أن نطلق عليه هذا الاسم ، أسوةً بالاسم المصرى المعروف : ميناء البصل ... وذهبنا نستطلع شأن المناشير التي يسمونها الطواحين ، فإذا هي تزحم البُقعة ، وإذا الخشب يجر من الأرض جرأ إلى حيث تلتممه الآلات المختلفة واحدة إثر أخرى ، وإذا الكتل العتيبة الضخمة قد أشبعت شقا وفترا وتفصيلا ، وإذا هي أشكال متباينة بين لوح

رقيق وآخر غليظ ، مربع أو مستطيل ، طويل أو قصير ، وإذا
النشارة تلال إلى تلال .

والخشب يخرج من هذه الطواحين مشدّبا سويّاً على أشكاله
المرسومة له ، لتحمله مركباتُ السكك الحديدية إلى البواخر ،
فتنقله إلى مختلف البلاد .

وأنت من هذه الطواحين في مصنع صحم تعج فيه الآلات
وتندوّى ، ويموج فيه العمال بين جبّة وذُهب ، ويغيم حوه بما
يتطاير فيه من غبار المناشير ، فلم يكن في مقدورنا أن نطيل
المكوثَ بين أرجائه ، وما أسرع أن انصرفنا عنه نطلبُ
الهواء الطلق ...

ركبنا السيارة الحافلة ، فعبّرت لنا جسرا يعدّه القوم
من أعظم جسور العالم طولاً وروعة موقع . إذ هو يطولُ
حتى يبلغ الميل ويشرف على ماهج من صعه الطبيعة منقطعة
النظير .

وأخيراً عدنا إلى قطارنا المحبوب ، تنهياً فيه لحفلة عشاء
وسهرة ، أو بالأحرى : حفلة ختام وتوديع ... فقد أكمل قطار

الشمس برناجمه ، وأتم مهمته ، وإنه لمنته إلى عاصمة « السويد »
في العاشرة من صبح غده .

النأم اجمع على مائدة العشاء في الفندق . فإذا هم قد ارتدوا
أبقر ما عندهم من لبوس السهرة ، وقد اختارت المضيفة ثوبا
ورديا زاهيا زادها من بهاء وإشراق ، فأما المضيف فقد علق على
الجانب الأيمن من صدره وساما براقا كافأته به مباحة السكك
الحديدية ، لما أبدى من كفاية وما بذل من مجهود .

كان الأمريكيون أكثر الجمع ، وثمة سيد كنتدى يمثل العنصر
الإنجليزى أو الامراطورية البريطانية على الأصح ، وسيد أسبانى
بلغ سن التقاعد الحكومى ، وسيدة فرنسية مريحة أدبر عنها
عصر الشباب ، وثمة آخرون غير هؤلاء وكنا نحن المصريين
أربعة ، رجلين وزوجتيهما .

طفقنا نطعم ... وتتابع شرب الانتخاب ، هذه كأس في
صحة الميمنة ، وتلك كأس في صحة الميسرة ، وثالثة في صحة من
هو على مقربة ، ورابعة في صحة من على مَبْعَدَة ، وأخرى
في صحة الشمل الجميع !

وشاعت بين الرفاق روحُ التأنس والمطايبة ، وقام الخطباء
يتقارضون التحايا . وبرزت آلة التسجيل تُثبت كل ما افرجت
عنه الشفاه ، فلم تدع ضحكة أو دُعابة إلا أَحْصَتْهَا ، ولم تدع
شِبْثًا من هفوات الخطابة إلا دَوَّنَتْهُ ...

وما إن أوشكت الحفلةُ على الإِنتهاء ، حتَّى أَلْفِينَا المضيف يترشح
من شُرْب الانخَبَاب جرياً على عاداتهم في بلادهم ، وهو يقول
في بهجةٍ عارمة :

من تَمَّةَ برنابجنا أن ينهضَ لتقبيلي كلُّ من ضم الحملُ
من النساء !

وتعالى التصايح ، وكان المضيف في المرحلة الأخيرة من
مراحل الشباب ، يمتاز باللافة والظرف ، فكيف يُلام فيما
طلب ، وقد كان حفيظاً بالرفقة طوال الرحلة ، لم يدخر وسعاً في
توفير الراحة لهم على مدى الطريق ؟

لم يعرف للمضيف هذا الحق إلا بعصرُ سيدات القطارِ
المُوغلات في السن ، فانهلكن على وجهه تقبيلًا ، كأنما
يغتنمن الفرصة ، وخرج الرجلُ من مَعْمَعَةِ التقبيلِ

مرصع الوجه بالوسمات الحمر... وضع الجمع بالهتاف
والتصفيق .

وأحس السيد المضيف أن وسامه ليس في مكانه من صدره ،
فبعثر نظراته يتفقد ، ونفسى تحدثني بأن أقول له :
خفف عنك ، ولا تعباً بوسمك المفقود ، وما أحرأك
أن تتركه لقطعة لمن يريد... فأنت الآن قد نلت أوسمة من
الفسحار ، وهدسك إياها شفاة ناعمات ، وإن كن لعجائز
النساء...!

تلك معاشاتهم ومداعباتهم... و فرق بين هذا وبين ما نحن
عليه في شرقنا الديّن المتحفظ ، الحريص على العادات المتمسك
بالتقاليد...!

فاهناً أيها الشرق...! إنك حقاً مهد الفضائل ومهبط الديانات ،
ويك قداسة وطهارة ، وأرضك بلا ريب أرض المعاد...!

فہرس

ملحق:

[illegible]

أحدث مؤلفات «محمود تيمور»

أ - مجموعات قصصية :

- ١ - كل عام وأنتم بخير
- ٢ - مكتوب على الجبين
- ٣ - نغف غليظة
- ٥ - لإحسان لله
- ٤ - شباب وغانيات
- ٦ - فرعون الصعير
- ٧ - أبو الشوارب
- ٨ - أبو على الفنان
- ٩ - زاهر الحى
- ١٠ - قلب ثانية
- ١١ - ثأرون
- ١٢ - دنيا جديدة
- ١٣ - نبوت الحفير
- ١٤ - نمر حنا بحب

ب - قصص مطولة :

- ١ - كيلوبازرة فى خان الحليل
- ٢ - سلوى فى مهب الريح
- ٣ - نداء المجهول
- ٤ - شمروخ
- ٥ - حلومر « نحت الطبع »
- ح - صور وخواطر :

- ١ - دلائع وغضون
- ٢ - إلى الإنسان

٣ - شفاء الروح

٤ - عطر ودخان

د - رحلات :

١ - أبو الهول يطير

٢ - شمس ونبيل

هـ - قصص تمثيلية :

١ - سفر قریش

٢ - سهاد أو اللحن التائه

٣ - المنقذة وحفلة شامى

٤ - الخبأ رقم ١٣

٥ - المزيفون

٦ - فداء

٧ - هوالى

٨ - أبو شوشة والوكب

٩ - قنابل

١٠ - حواء الخافدة

١١ - اليوم نخر

١٢ - ابن جلا

١٣ - أشطر من إبليس

١٤ - كذب فى كذب

و - دراسات لغوية وأدبية :

١ - مشكلات اللغة العربية

٢ - دراسات فى القصة والمسرح

